الفصل الرابع عشر

مقالات في السيرة النبوية[1]

أولاً: تعريف بمعجزات رسول الله ﷺ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله المبعوث رحمة للعالمين، وبعد: فهذا تعريف سريع، وتذكير عام بمعجزات رسول الله ﷺ التي أكرمه الله تعالى بها.

أولاً: تعريف المعجزة: هي أمر خارق للعادة، يظهره الله على يد نبي لتأييده وتصديقه في النبوة، وهدفها إقامة الحجة على الناس، وبيان قدرة الله وعظمته في خرق العادات.

ثانياً: معجزات الأنبياء: كان الله تعالى يؤيد كل نبي بمعجزة أو أكثر، لبيان صدقه وأنه مرسل من عند الله تعالى، وهي كثيرة، كالطوفان لنوح، والناقة لصالح، والريح لسليمان مع تسخير الجن له، والعصا لموسى مع شق البحر ونجاته من فرعون، وإحياء الموتى وإبراء الأبرص والأعمى لعيسى عليهم الصلاة والسلام.

---

(١) انظر المزيد من المقالات في الفصول الأخرى:

- نصرة النبي بتطبيق سنته في كتابنا: دراسات فقهية معاصرة ١/٦٥٩.
- شمائل الرسول في القرآن في كتابنا: دراسات فقهية معاصرة ١/٦٨٣.
- ذكرى المولد النبوي = فصل ٢٠ مناسبات.
- يوم بدر يوم الفرقان = فصل ٢٠ مناسبات.

ولكن هذه المعجزات السابقة تتصف بصفتين، وهما أنها **مؤقتة** لأهل زمانهم، **ومادية** ملموسة بالحواس لمن رآها وحضرها، ثم أخبر عنها، لأن دعوة الأنبياء السابقين كانت **خاصة** لأقوامهم، **ومؤقتة**، ثم جاءت دعوة رسول الله ﷺ للبشرية **خالدة وباقية** حتى تقوم الساعة، فكانت معجزته الكبرى دائمة وخالدة.

ثالثاً: معجزات الرسول ﷺ كثيرة جداً، وهي تقرب من ثلاثمائة معجزة مذكورة في كتب الأحاديث المعتمدة، وكل معجزة تستحق بحثاً مستقلاً.

رابعاً: أقسام المعجزات: وهذه المعجزات ثلاثة اقسام: مادية، ومعنوية، وغيبية.

فالقسم الأول: المعجزات الغيبية وهي نوعان: **النوع الأول:** بالإخبار عما سبق من قصص الأمم والأنبياء والرسل مثل قصة نوح والطوفان، داود وعمله، سليمان وحكمته، موسى وسيرته، عيسى وولادته ومعجزاته، وكلامه في المهد، قصة عاد، وثمود، وغيرهم.

النوع الثاني: المعجزات الغيبية بالإخبار عما سيقع، ثم وقع فعلاً، أو سيقع في المستقبل، ونذكرها تعداداً:

- انتصار الروم على الفرس.

- الاعلان عن عودته لمكة أثناء الهجرة والخروج منها ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥].

- إخباره لعدي رضي الله عنه أن الظعينة ستأتي من الحيرة (بالعراق) إلى صنعاء بالأمن والأمان.

- إخباره لعمار أنه ستقتله الفئة الباغية.

– قوله لجبل أحد، عليك رسول وصديق، وشهيدان (وهما عثمان وعلي رضي الله عنهما وقد استشهدا).

– تحديد مصرع صناديد قريش في معركة بدر، وكان كما أخبر.

– إخباره لعمير بن وهب أنه جاء من مكة متآمراً مع أبي سفيان لقتل الرسول ﷺ مما دفع عمير لإعلان إسلامه.

– إخباره بفتح مكة، وقد فتحت.

– إخباره بفتح القسطنطينية، وقد فتحت.

– إخباره لأم حرام أنها ستركب البحر في الجهاد، وركبته واستشهدت في قبرص.

– قوله عن الحسن رضي الله عنها: أنه سيد، وسيصلح به طائفتان، وقد حصل عام الجماعة.

– حديثه عن الوهن الذي سيصيب الأمة مع كثرة العدد، ولكنهم غثاء كغثاء السيل وهو ماتعيشه الأمة الآن.

– إخباره عن استشهاد زيد وجعفر وعبد الله بن رواحة في مؤتة، وتولي القيادة لخالد رضي الله عنهم.

– إخباره عن فتح مدائن كسرى وقيصر أثناء حفر الخندق.

– علمه بوفاة النجاشي في الحبشة، والصلاة عليه.

– علمه بدس السم من اليهود في شاة.

– علمه بتآمر اليهود عليه لقتله، بإلقاء الرحى عليه أثناء استضافته وجلوسه لدعوتهم.

– قصته مع سراقة الذي طارده في الهجرة لقتله، ووعده بسواري كسرى، ثم ألبسهما له عمر ﷺ عند فتح المدائن وقصر كسرى بالعراق.

– قصته مع عداس في بستان الطائف، عندما سمى الله تعالى، فقال له: ليس هذا مما يعرفه أهل هذه البلاد، فسأله ﷺ: من أي البلاد أنت؟ فقال: من نينوى (الموصل بالعراق) فقال له: من بلد نبي الله يونس؟.

– قصته في الغار مع أبي بكر، وقد أحاط به الكفار، فقال له: «ماظنك باثنين الله ثالثهما».

– قوله ﷺ لابنته فاطمة الزهراء البتول أنها أول من ستلحق به موتاً من أهله، وهذ ماحصل.

– إخباره عن انتشار الإسلام حيث تطلع الشمس وتغيب، وهو ماحصل في هذا العصر.

خامساً: معجزات علمية في السنة، وهي كثيرة، ومنها:

– حديث الذباب، وأن في أحد جناحيه داء، وفي الآخر دواء.

– حديث فر من المجذوم فرارك من الأسد، واكتشف عالم فرنسي أن جرثومة الجذام كرأس الأسد فأسلم.

– حديث غسل اليدين بعد الاستيقاظ، وأن النائم لا يدري أين باتت يده، وبيان ما على جلد الإنسان من بثور أو جراثيم تستقر تحت الأظافر بالحك أثناء النوم، فاستحب غسلها.

– حديث السواك.

سادساً: القسم الثاني: المعجزات المادية التي رآها صحابة رسول الله ﷺ، ورآها أحياناً الكفار فأسلموا، ومن ذلك:

- حنين **الجذع** الذي كان يخطب عليه، ثم تركه عند وضع المنبر له (البخاري ١٣١٤/٣ رقم ٣٣٧١) وأحمد والدارمي (شعبان ص٣٨، والبخاري في علامات النبوة، مع فتح الباري ٤٧٢/٧، ٤٧١/٨).

- صموده للكفار والمشركين عند انهزام المسلمين في أحد حتى أصيب وكسرت رباعيته.

- صموده أمام الأعداء عند انهزام المسلمين في حنين، وهو يقول: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب».

- قصته مع أعرابي جاء لقتله وهو نائم، فاستل سيفه، وقال: من يعصمك مني؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «الله» فسقط السيف من يده.

- قصته مع أم معبد أثناء الهجرة عندما طلب منها طعام، فاعتذرت، وعندها شاة غير لبون، وعجوز وضعيفة ومتخلفة عن القطيع، فوضع يده عليها، وحلب منها، وشرب، وترك لأم معبد نصيباً، حتى جاء زوجها، وأعلمته بالرجل والقصة.

- شق الصدر في الصغر، عندما كان في رضاعة حليمة السعدية ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١].

- شق الصدر ليلة الإسراء والمعراج ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ١-٢].

- سجود الشجر والحجر للنبي ﷺ.

- تسليم الحجر على النبي ﷺ.

- تسبيح الحصى في كفه الشريف.

- معجزة الإسراء والمعراج.

– نبع الماء من بين أصابعه الشريفة في الإناء للوضوء في صلاة العصر، وكانوا ثلاثمائة (رواه البخاري ٧٤/١ رقم ١٦٧، ومسلم، والترمذي، ومالك والشافعي والبيهقي).

– نبع الماء من بئر جافة، عندما أخرج من كنانته سهماً، وطلب من أحد أصحابه غرسه في البئر ففاضت.

– يوم الحديبية وضع يده في ركوة الوضوء، وليس لديهم ماء، ففار الماء بين أصابعه كأمثال العيون، وكنا خمس عشرة مائة، ولو كنا مائة ألف كفانا (البخاري ١٣١٩/٣ رقم ٣٣٨٠) وابن ماجه وابن خزيمة.

– تكثير الطعام، كنا مع النبي ﷺ ثلاثين ومائة، ومع رجل صاع من طعام، فشبعوا جميعاً (البخاري ٩٢٣/٢ رقم ٢٤٧٤) ومسلم في الأشربة باب إكرام الضيف، وتكرر ذلك (شعبان ص ٣٧).

– تربية الصحابة ونقلهم من رعاة، وقبائل متناحرة إلى أمة تقود العالم، فكانوا «**خير جيل عرفه التاريخ**».

– موقف الصحابة عامة، وأبي بكر خاصة، من قتال المرتدين بعد وفاة رسول الله ﷺ، وقتال المدعين للنبوة مثل مسيلمة الكذاب، وسجاح، وقتال مانعي الزكاة.

سابعاً: القسم الثالث: المعجزات المعنوية، وهي كثير جداً، ولكن أهمها **القرآن الكريم**، الذي يتضمن معجزات **بيانية ولغوية** في الفصاحة والبلاغة، ومعجزات **علمية** يكشف عنها العلم في كل عصر، ومعجزات **تشريعية** في الأحكام، ومعجزات **غيبية** عن الماضي والمستقبل كما سبق، **ومعجزات تربوية**.

وإن معجزات القرآن الكريم دائمة، وخالدة لتعجز الإنس والجن حتى تقوم الساعة.

قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

وتحدى القرآن الكريم البشر على أن يأتوا بمثله فعجزوا، ثم تحداهم على الإتيان بعشر سور من مثله فعجزوا (هود/١٣) ثم تحداهم على الإتيان بسورة من مثله (يونس/٣٨) فعجزوا إلى الأبد، فطلب منهم الإقرار، والاعتراف أنه من عند الله، وأنه الإله الواحد الأحد، الفرد الصمد الذي أرسل محمداً ﷺ، وأنزل عليه القرآن ليكون للعالمين بشيراً ونذيراً، فقال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾[البقرة: ٢٣-٢٤].

- إن معجزة القرآن الدائمة الخالدة هي **سبب للدخول في الإسلام** قديماً وحديثاً، ومستقبلاً.

- منها قصة إسلام عمر رضي الله عنه عندما ذهب لقتل الرسول ﷺ، وتوجه لبيت أخته وصهره لقتلهما عندما علم بإسلامهما، ولما سمع (سورة طه) أسلم، وتوجه إلى دار الندوة ليعلن إسلامه.

- قصة الأخنس بن شريق، وأبي سفيان، وأبي جهل، كانوا يتسلل كل منهم منفرداً ليلاً ليسمع عذوبة القرآن سراً عند تلاوة رسول الله ﷺ له عند الكعبة (ابن هشام ٣١٧/١، أصول تدريس ص ٢٩٢).

– قصة الوليد بن المغيرة لما سمع القرآن فقال: «إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، ومايقول هذا بشر» (ابن هشام ٣١٢/١).

– كلام عتبة بن الوليد: «والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة... خلوا بينه» (ابن هشام ١٣٠/١، تفسير ابن كثير ٩٠/٤).

– تأثر كفار قريش بالقرآن، وعجزهم عن مضاهاته، وعنادهم على الكفر، ووصفهم القرآن بأنه ﴿سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: ٢٤].

– كان الرسول أمياً لا يقرأ ولا يكتب فجاء بالقرآن والرسالة وما فيها.

– قصة أبي بكر عندما دخل في جوار ابن الدغنة (البخاري ٢٧/٢، ٢١٥، ابن هشام ٣٧٣/١، الدرر ص ٤٤).

– قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

– قالت الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ٢].

– ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

– «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وحفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده».

– أحكام الميراث الدقيقة الكاملة في ثلاث آيات.

- أحكام المحرمات من النساء وترتيبهن في آية واحدة.
- أحكام التيمم، السواك، المسح على الخفين، الوضوء.

ثامناً: معجزات علمية في القرآن الكريم: وهي كثيرة جداً، وظهر الاهتمام بها في هذا العصر، وصنفت فيها كتب، وأنشئت لها مؤسسة خاصة، فمن ذلك:

- ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩-٢٠].
- تكوين الجنين من الحيوان المنوي والبويضة.
- استقرار الجنين في الرحم ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٠-٢٣].
- خروج الجنين من الرحم ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ [عبس: ٢٠].
- خلق السمع والبصر وبقية الحواس.
- الإعجاز العددي في القرآن الكريم.
- دوران الشمس والقمر والنجوم والكواكب والمجرات ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ [يس: ٤٠].
- معجزة الليل والنهار، ويخلف كل منهما الآخر.
- معجزة الجبال الرواسي.
- تكوين الأمطار والرياح.

تاسعاً: فضل القرآن العظيم:

وهنا يجب أن نذكر **بحديث علي** ﷺ عن القرآن، عندما حضر عند رسول الله ﷺ، فقال له: «يا علي ستكون فتن» قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟

«كتاب الله، فيه نبأ ماقبلكم، وخبر مابعدكم، وحكم مابينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهُدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق (يبلى) عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: إنا سمعنا قرآناً عجباً، يهدي إلى الرشد فآمنا به، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم» الترمذي ٨/٢١٨.

ومثله حديث ابن مسعود رضي الله عنها، وفيه:

«إن هذا القرآن **مأدبة الله**، فاقبلوا مأدبته ما استطعتم».

«إن هذا القرآن **حبل الله**، والنور المبين، والشفاء النافع».

«عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن تبعه».

«لا يزيغ فيستعتب، ولا يعوج فيقوم...» الحاكم، المستدرك ١/٥٥٥.

عاشراً: الغاية من معرفة المعجزات:

وأخيراً فإن الهدف من التذكير بمعجزات رسول الله ﷺ ليزداد المؤمن إيماناً ويقيناً، ويزداد محبة لرسول الله ﷺ، وذلك فيما يلي:

١- بيان **فضله على كل مسلم**، وعلى كل إنسان من البشرية.

٢- بيان فضله **عند الله** تعالى ومكانته.

٣- بيان **أثره** ﷺ، وأنه أعظم البشر، وأحد المائة الأوائل (توماس كارليل).

٤- إن ذلك **ركن في الإيمان** «لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواه». ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

٥- إن رسول الله، **حبيب الله**، المصطفى من الله، والرحمة المهداة، والرحمة للعالمين، خاتم الرسل والأنبياء.

٦- ضرورة **التعرف على سيرته** لزيادة محبته واتباعه.

٧- **إن الإساءة له** تقع بسببين: ١- الجهل بسيرته العطرة وأخلاقه وشمائله وشريعته، فلو عرفوه لاتبعوه، وأحبوه أو احترموه، أو أطاعوه، أو التزموا الأدب معه. ٢- الحقد والضغينة المتأصلة من أتباع بعض العقائد.

٨- ضرورة معرفة سيرته الشريفة، كما أمر بها القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩]، ومن درس سيرته، واطلع على حياته اعترف له بالفضل والمكانة والتقدير والتعظيم والاحترام.

حادي عشر: شروط المعجزة:

يشترط في المعجزة عدة شروط، أهمها:

١- أن تكون من فعل الله تعالى أو ما يقوم مقامه من الأمور.

٢- أن تكون خارقة للعادة.

٣- أن يتعذر معارضتها.

٤- أن تظهر على يد مدعي النبوة.

٥- أن تكون موافقة للدعوى.

٦- ألا يكون صاحبها مكذباً لها.

٧- أن يتم التحدي بها.

٨- أن تكون مقارنة للدعوى، وليست سابقة، وإلا كانت إرهاصاً (شعبان ص٢٦).

ثاني عشر: الارهاصات:

لابد من التذكير أيضاً بالارهاصات، وهي معجزات أو كرامات حصلت لرسول الله ﷺ قبل البعثة، وقبل أن يصبح نبياً، وذلك إعداداً له، واصطفاء، ورعاية وتربية إلهية، فمن تلك الارهاصات:

دعاء إبراهيم له، وبشارة عيسى له، ورضاعه عند حليمة والنعم عليها، وبشارات التوراة به، بشارات الإنجيل به، وصفه في قريش بالصادق الأمين، وضع الودائع والأمانات عنده، اختياره لوضع الحجر الأسود، رعاية جده له، رعاية أبي طالب له وضمه لأولاده وتفضيله عليهم، تجارة خديجة معه والأرباح فيها، عدم سجوده لصنم مع أن ذلك كان الشائع الوحيد في مكة، عدم شربه للخمر، حفظه من سماع المجون والغناء واللهو عندما حضر مع أصحابه الشباب، فألقى الله عليه النوم فلم يسمع شيئاً.

ثانياً: وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين[1]

البشرية اليوم تعيش في صورة فريدة نتيجة للتقدم العلمي، وتطور المواصلات وسهولة السفر، وكثرة المعاملات، وضخامة التبادل التجاري والثقافي والخدمي والسكاني، فتجد في بلد ما خليطاً من الناس يزيد عن خمسين دولة، ونرى في جامعة ما طلبة من سبعين بلداً، وتشاهد في مهرجان ما، أو معرض ثقافي أو فكري أو تجاري ما يربو عن مائة جنسية، وتعرف يقيناً أن حجاج بيت الله الحرام من مختلف الشعوب والجنسيات والقوميات والأعراق، ومن قارات العالم الست، ويتكلمون مئات اللغات وآلاف اللهجات، ويتعارف الجميع في حدود تضيق أو تتسع، وبحسب الأهداف والعقائد والغايات والمصالح.

◈ التعارف بين الشعوب:

إن هذا التصور الواقعي اليوم هو ما دعا إليه القرآن الكريم قبل خمسة عشر قرناً، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

فالخطاب لجميع البشر من ذرية آدم، وهم قبائل شتى، وشعوب متعددة، ويدعوهم للتعارف فيما بينهم، والتآلف في حياتهم، والتعامل والتعاون في معاملاتهم، والتناصر في تحقيق أهدافهم، قبل أن يظهر اصطلاح (العالم قرية صغيرة) لأنهم إخوة في الإنسانية، وحياتهم واحدة، وكوكبهم واحد، وربهم واحد، وأصلهم واحد، ومصيرهم واحد، والخير يعمهم، والشر يستأصل

---

(١) المسيرة، العدد الأول، أكتوبر ٢٠٠٣م، شعبان ١٤٢٤هـ.

شوكتهم، فلا مدعاة للقبلية الضيقة، والقومية المتقوقعة، والعنصرية الحاقدة، والمؤامرات الماكرة، على فريق من البشرية، والمخططات الخبيثة على فئات محددة، فإن آثار الدمار الشامل لا ينحصر في جهة أو قوم أو بلد، وإنما يمتد أثره لسائر الكرة الأرضية، وللأجيال المتعاقبة.

◈ حاجة الإنسانية للهداية:

إن الإنسانية أحوج من أي وقت مضى للرشاد والهداية، والتعاون والتآخي، وتوحيد الصف، والتبادل الثقافي والفكري والمعرفي، وخاصة إذا قامت على عقيدة صحيحة، وشريعة سماوية سامية، صالحة لكل زمان ومكان، وهذا ما أراده الله تعالى من بعثة الرسول ﷺ، ومن رسالة الإسلام، وجاء بنصوص صريحة، وأدلة واضحة، ودلالة قاطعة، فقال تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ، ومبيناً وظيفة الرسالة التي كلف بها، والأمانة التي حمل إياها، قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فكانت هذه الآية تبين خاصية رسالة الرسول ﷺ، وميزتها على سائر الشرائع بميزة العموم والدوام، وأنها رحمة للعالمين، واشتملت هذه الآية -على وجازة لفظها- على مدح الرسول عليه الصلاة والسلام، ومدح مرسله تعالى، ومدح رسالته بأنها كانت مظهر رحمة الله تعالى للناس كافة، وبأنها رحمة الله تعالى بخلقه، وأفادت عموم الأحوال، واستغراق المرسل إليهم، بلفظ (العالمين) لجميع الأجناس والأقوام، وجاء التعبير القرآني أن الرسول ﷺ رحمة للعالمين، والمراد به رسالته التي تمثلت في أفضل صورها برسول الله ﷺ.

◈ العموم والشمول للإسلام:

ثم أكد القرآن الكريم هذا المعنى في عموم الرسالة لكافة الناس، والأقوام،

والأجناس، والأعراق فقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [سبأ: ٢٨].

فالله تعالى أرسل الرسول ﷺ رسولاً لجميع الخلق ليكون مبشراً للمؤمنين والصالحين والعاملين والمخلصين بجنات النعيم، ومنذراً للكافرين والمعتدين والظالمين والطغاة والبغاة من عذاب الجحيم.

ولفظ (كافة) من ألفاظ العموم، وهي حال من (الناس)، أي للناس كافة، وقدم القرآن الكريم الحال على صاحبه للاهتمام بها، ولتأكيد عموم رسالة الإسلام لجميع الناس دون تفريق بينهم باللون أو الجنس، أو اللغة، أو الأرض.

وجاء الشمول في الشريعة والعموم للناس وذلك في عدة أحاديث، منها ما أخرجه البخاري ومسلم عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيّ من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة ورواية مسلم «أعطت خمساً لم يعطهن أحد قبلي: كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود..».

قال النووي رحمه الله تعالى: «قيل المراد بالأحمر البيض من العجم وغيرهم، وبالأسود العرب لغلبة السمرة فيهم وغيرهم من السودان، وقيل المراد بالأسود السودان وبالأحمر من عداهم من العرب وغيرهم وقيل الأحمر: الإنس، والأسود الجن، والجميع صحيح، فقد بعث إلى جميعهم».

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم،

وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون».

فكان الإسلام ديناً، علماً، شاملاً، جامعاً، داعياً إلى وحدة العقيدة والفكر والثقافة مع المحافظة على الذات واللغة والجنس والقوم، مما يعتبر مجرد وعاء يحتاج إلى ما يشغله، فيرقى به، ويؤكد وحدة الإنسانية، وحاجاتها للتآلف والتعاون، والتناصر والتناصح.

◈ وحدة الإنسانية:

«فالناس سواسية كأسنان المشط، والبشر وحدة قائمة متجانسة، فلا فضل لعربي على أجنبي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى، وما يقدمه من عمل صالح ينفع الناس والبشرية، لأن الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله».

هذه الوحدة ليست مجرد شعار وأمنية وحلم، بل قررها القرآن الكريم على أسس واضحة واقعية تاريخية ومستقبلية، قرر أن أصل البشرية واحد، ومنه بث الناس جميعاً، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

ودعا الإسلام الناس جميعاً إلى عبادته ليكونوا عبيداً لله تعالى دون سواه من الطواغيت، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، فالآية حددت الغاية والهدف من العبادة في المستقبل، وهي التقوى والصلاح، ثم دعا القرآن الكريم الناس جميعاً للدخول في السلم والسلام، وحذرهم من التفرق والتناحر لغواية الشيطان

فقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، فالخطاب أوله للمؤمنين، ولكن لإقامة السلم مع كافة الناس، وهذا ما أكده القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] فهو نبي مرسل من رب العالمين إلى العالمين، وليس لفئة أو جنس أو قوم، لأن الناس سواء بالنسبة للأحكام الشرعية.

◈ الرحمة المهداة:

ولم يكن الإسلام مجرد دين فحسب، ولم يكن الرسول عليه الصلاة والسلام مجرد نبي مرسل للناس جميعاً فحسب، بل كان الإسلام رحمة للعالمين، وكان الرسول ﷺ الرحمة المهداة من قبل رب العالمين، وهو ما بينه القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ولم يوصف نبي بصفتين من صفات الله إلا الرسول ﷺ رؤوف رحيم.

وروى الدارمي أن رسول الله ﷺ قال: «إنما أنا رحمة مهداة».

وبناء على هذه الوحدة الإنسانية، والرحمة بالبشرية، سوى الإسلام بين الناس في المعاملة، وشرع لهم أحكاماً تعم الأجناس والأقوام، دون أن يختص البيض بأحكام، والسود بأحكام أخرى، ولا يخصص أحكاماً للشرق وأحكاماً للغرب، ولا يميز بين الأحكام للشمال والجنوب، إلى غير ذلك من التفرقة التي ما أنزل الله بها من سلطان، وتدل على ضيق الأفق، وإقليمية التشريع، وعنصرية الأنظمة والقوانين الوضعية، وهذا ما أدركه البشر اليوم في بعض المنظمات الدولية والعالمية، وحقوق الإنسان، ولو نظرياً.

وأكد رسول الله ﷺ هذه المعاني، فقال عليه الصلاة والسلام: «كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى».

وتعددت النصوص في القرآن الكريم والسنة التي تخاطب الناس كوحدة إنسانية بأحكام الإسلام، دون تفريق بينهم، فالجمع خلق الله، وهم عباد الله، وعبيد لله، وهم سواء، والكل مخاطبون بأحكام الشرع.

ومن هنا كان الإسلام رحمة للعالمين، وللبشرية أجمعين عقيدته، وأخلاقه، وتشريعاته، وكان رسول الله ﷺ رحمة للناس، وكانت الشريعة الغراء منهج الله تعالى القويم في حسن التعامل، والتعارف، والتبادل، واللقاء، والعيش الرغيد، بما يحقق مصالح الناس، ويؤمن كل ما فيه خير لهم، ويدفع عنهم كل ما فيه شر، ويجنبهم مزالق شياطين الجن والإنس، ليكونوا عباد الله حقاً وحقيقة، وإخوة في الإنسانية واقعياً، ثم يبقى المسلم متميزاً بالتمسك بالعقيدية السمحة، والخوف الكامل من الله، والمراقبة في السر والعلن، وتقديم الخير والإحسان لجميع الناس، والرأفة والرحمة لجميع المخلوقات.

◈ الإسلام عقيدة وشريعة:

ومن رحمة الله تعالى بالعباد، ومن سمو الإسلام وعظمته، أنه جمع بين العقيدة والشريعة، وأنزل في ذلك الكتاب العزيز، ثم بينته السنة الشريفة، لكن مع فارق كبير بينهما في الدنيا، وفي منهج التعامل مع الآخرين من سائر الشعوب والأجناس واتباع الديانات، كما سيأتي.

أولاً: قدسية العقيدة:

قرر الإسلام قدسية العقيدة، وأنها لا تقبل المساومة، والمفاوضة،

وأنصاف الحلول، وأنها لا يمكن فرضها على غير معتنقيها فقال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ورفع الإسلام من شأن الإيمان، وجعله علاقة سامية بين العبد وربه، وأن جزاءه في الآخرة.

وأمر الله عز وجل رسوله ﷺ في مجال المناظرة والمحاورة والجدل مع غير المسلمين أن يقول لهم بكل صراحة ووضوح وحسم: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] وكان سبب نزول هذه الآية، والسورة كلها، أن المشركين عرضوا على رسوله ﷺ الصلح في العقيدة وللتنازل الجزئي عن الأولوهية والعبودية، والاعتراف المتبادل بالإيمان والعبادة، فجاء الرد المحكم ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ [الكافرون: ١-٣]، ولذلك يترك أهل الكتاب على دينهم وعقيدتهم مهما كانت، دون أن تمس، حتى أمر القرآن الكريم المسلمين بعدم سب آلهة الغير حتى لا يتذرع بذلك فيسب الله معاملة بالمثل، جهلاً وحمقاً، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

وفي المقابل لا يسمح للمسلم أن يمس العقيدة الإسلامية بسوء، أو يتلاعب بها علناً، وإلا كان مرتداً، فيستتاب، فإن أصر قتل كفراً، وأن أبطن ذلك سراً، وتشكك في أصول الإيمان وأركانه كان منافقاً، وهو أسوأ حالاً من الكافر، وأشد عقاباً، فهو في الدرك الأسفل من النار في الآخرة.

ثانياً: العدالة في الشريعة:

أما في الأحكام العملية فجاء التسامح في المعاملات، وإقامة العدالة في الأحكام، والتساوي في الحقوق والواجبات بين الجميع، مسلمين وغير

مسلمين، وهو ما قرره رسول الله ﷺ نظرياً في الوثيقة التي كتبها عند قدومه ﷺ المدينة بقوله: «لهم ما لنا، وعليهم ما علينا» وطبقه عملياً في جميع شؤون الحياة المادية في الأموال وأمام القضاء، وفي سائر الأحكام الشرعية، فيكون غير المسلم على قدم المساواة في الحقوق والواجبات في أحكام العقود، والمخالفات، والعقوبات التي تطبق على الجميع في الدنيا.

وأثبت التاريخ الإسلامي للدولة الإسلامية الالتزام بذلك مع عزّ المسلمين، وعاش أهل الكتاب في دار الإسلام بأمان وكرامة، بل كانت هذه العدالة والمساواة والمعاملة الحسنة، في إنصاف غير المسلم، وإعطائه حقوقه، ولو كانت على مسلم، سبباً في إقبال الناس على الإسلام، ودخولهم في الدين الإسلامي، حتى صارت معظم البلدان التي فتحها المسلمون ذات أكثرية إسلامية، وكل ذلك يعود فضله لله تعالى الذي أنزل الإسلام رحمة للعالمين، له الحمد والمنة، نسأله حسن الفهم والاتباع والالتزام والتطبيق، والله من وراء القصد.

ثالثاً: محمد رسول الله والذين معه

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ولا قوام اليوم للمسلمين وأهل القرآن.

ويقول تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١] والمسلمون اليوم في ظلام دامس.

ويقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ولا حياة للمسلمين اليوم إلا على هامش العالم.

وقال تعالى -مخاطباً نبيه محمداً ﷺ، وخطاب الرسول خطاب لأمته: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١]، وأمتنا الإسلامية اليوم أشقى الأمم، مع الفقر والتخلف والشقاء.

والقرآن الكريم بين أيدينا بشكل كامل وصحيح مائة بالمائة كما كان في السابق، فكيف حقق المسلمون الأوائل النصر والعزة، والتقدم والرقي، والسعادة والنور، ولم يتحقق ذلك الآن؟

إنه سؤال يتردد على الألسنة، فما هو الجواب؟ وماهو الداء؟ وماهو الحل والدواء؟

إن القرآن الكريم نفسه يجيب على ذلك، وشخص الداء والمرض، ووصف الدواء والعلاج وذلك في آيات كثيرة، تبين منهج الله في الكون والإنسان والحياة، وتحدد السنن الإلهية في ذلك، لتكون النتائج متطابقة تماماً

مع الأسباب والمقدمات، ولا شك أن المشكلة كبيرة وعويصة، ولها جوانب عديدة، ولا تحل بتعليل واحد، ولا بموعظة بليغة، ولا بدواء سحري، ونكتفي بالمساهمة في كشف بعض الداء والمرض للتحذير منه، ونبين آية من كتاب الله تعالى للمشاركة في الدواء والاستشفاء الذي أدى مفعوله في الماضي، ونأمل أن يحقق ذلك في الحاضر والمستقبل.

قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، ونعرض طرفاً من تفسير الآية، ومدلولها، وبيان المطلوب منها، والتحذير من مخالفتها.

ومطلع الآية ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ﴾ وهذا أحد أركان الإيمان، وشطر الشهادتين للدخول في الإسلام، وجزء من أفضل الأذكار والأدعية «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله»، وهذا يمثل الركن الأول في العقيدة، ولا يشك فيه مسلم، ويتردد على الألسنة والأفئدة ويورث الاتباع والتقوى والهدي القويم، ويطمئن به القلب، ويسلم به الجنان، فلا حاجة لمزيد البيان والإيضاح.

ثم يأتي المعطوف عليه ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ والعطف يقتضي المشاركة في الصفات والأعمال ولو نسبياً، لتتحقق المعية والاشراك.

وهذه المعية مع رسول الله ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ لها معنيان، حقيقي، ومجازي، فالمعنى المجازي أن الذين معه هم المسلمون جميعاً من البعثة وحتى تقوم الساعة، ليكونوا معه في الصفات التي جاءت في آخر الآية، وفي سائر الصفات والأعمال التي عرضها القرآن الكريم وبينها رسوله الكريم، ليتم الاتباع والاقتداء والسير على الهدي الإلهي والسيرة الشريفة والسنة العطرة،

وهذا ما نتمناه، ونرغب بحصوله، ليكون سبيل الرشاد والنور والقوامة في الدنيا، والحياة الكريمة في المعمورة، ودرة شامخة بين الأمم.

والمعنى الحقيقي في ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ هم صحابة رسول الله ﷺ الذين تمتعوا بنور النبوة، وآمنوا معه، ونصروه، وعزروه، واتبعوا النور الذي جاء به، وتخرجوا من مدرسته، وتربوا على يديه، وجاهدوا معه، وتحقق النصر والعزة على أيديهم، فكانوا خير جيل عرفه التاريخ، وهم المهاجرون والأنصار، ومن رأى رسول الله ﷺ مؤمناً به، ومات على ذلك.

وبين القرآن الكريم فضل الصحابة خاصة في نفس سورة الفتح، فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، وهم أصحاب بيعة الرضوان من المهاجرين والأنصار، والذين ورد في فضلهم الأحاديث الكثيرة عن رسول الله ﷺ، بالإضافة إلى أهل بدر، وأحد، والخندق، وبيعة العقبة، وأثنى الله على المهاجرين خاصة، فقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]، وفي قمة هؤلاء الخلفاء الراشدون، والعشرة المبشرون بالجنة، ثم أثنى الله سبحانه وتعالى على الأنصار، فقال عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، فهذا ثناء من الله، وشهادات الرضى من القرآن الكريم، بالنص الصريح القطعي، لمن يريد التمسك بكتاب الله، والاحتجاج بآياته، مما لا مجال للشك أو الافتراء.

ولكن يظهر على الأفق أمراض فتاكة خبيثة، وجراثيم معدية لتمزق المسلمين، وتزرع الأحقاد بينهم، وتبث الاختلاف في صفوفهم بالطعن في صحابة رسول الله ﷺ، ورضي الله عنهم، والنيل من مكانتهم، واتخاذهم غرضاً لسهامهم، وسبة في أفواهم، وهذا أحد مصائب الأمة اليوم، وأحد أمراضها المدمرة، حتى وصل الخطر لصحابة رسول الله ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ وهنا تحل الطامة الكبرى في الأمة بما يخالف النصوص الصريحة في آيات الله تعالى، مع الإساءة للأموات، وتزييف التاريخ، وتتبع السقطات التي يثيرها أعداء الله قديماً وحديثاً، وتجاهل الفضائل والمبرات والأعمال المجيدة التي سطرها صحابة رسول الله ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾.

وكأن رسول الله ﷺ يخبر عن الغيب الذي يطلعه عليه الله تعالى، وماسيقع في الأجيال اللاحقة، فأرشد إلى مكانة صحابته في أحاديث عدة، وحذر من التفرق والتمزق والتشتت الذي سيقع، وماسيبثه الشيطان وأعداء الله فيما بينهم، فمن ذلك قوله ﷺ: «خير أمتي (الناس) قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم إن من بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون...» الحديث[1]، ثم قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»[2]، وورد في فضل أبي بكر رضي الله عنه آية صريحة، قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ

(١) هذا الحديث أخرجه البخاري ٩٣٨/٢ رقم ٢٥٠٩/٢٥٠٩، ومسلم ٨٤/١٦ رقم ٢٥٣٣- ٢٥٣٦.

(٢) هذا الحديث أخرجه البخاري ٣ / ١٣٤٣ رقم ٣٤٧٠ ، فتح الباري ٨ / ٦٠٤ ط أبي حيان، ومسلم ١٦ / ٩٢ رقم ٢٥٤٠.

...إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ ...﴾ [التوبة: ٤٠].

قال البخاري رحمه الله تعالى: «وكان أبو بكر مع النبي في الغار»[(١)]، ووردت أحاديث كثيرة في فضل الصحابة عامة، وفي فضل كبار الصحابة خاصة، للاقتداء بهم، والسير على منوالهم ففي حديث يستأنس به «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»[(٢)] «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ»[(٣)].

وإن صحابة رسول الله ﷺ ورضي عنهم ليسوا ملائكة، ولا أنبياء، ولا معصومين، وقد يقع الخطأ منهم، فخطؤهم على أنفسهم، ويقابله أضعاف مضاعفة من الأعمال المجيدة، والمآثر الخالدة، وإن الأدب النبوي في المسلم العادي يقرره الحديث الشريف: «اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساوئهم»[(٤)]، وربنا سبحانه وتعالى يبين المنهج القويم في ذلك فيقول: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤، ١٤١].

---

(١) هذا الحديث أخرجه البخاري معلقاً ٣ / ١٣٣٦ قبل حديث رقم ٣٤٥٢.

(٢) هذا الحديث رواه البيهقي، وأسنده الديلمي عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ آخر (كشف الخفا ٢/١٤٦).

(٣) هذا الحديث أخرجه أبو داود ٢/٥٠٦، والترمذي ص ٤٣٣ رقم ٢٦٧٦ ط بيت الأفكار الدولية، وابن ماجه ص ٢٢ رقم ٤٢ ط/ بيت الأفكار الدولية، وأحمد ٤/١٢٦، ١٢٧.

(٤) هذا الحديث أخرجه أبو داود ٢/٥٧٣، والترمذي ص ١٨٢ رقم ١٠١١٩ ط/ بيت الأفكار الدولية، ورواه الحاكم والبيهقي الفتح الكبير ١/١٦٣، عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً.

ليشغل المسلم نفسه بالخيرات والمبرات وأعمال الخير، ويشيد بها، ويترك ماعدا ذلك حتى لا يرد عليه.

فكيف ينال أناس ينتسبون إلى الإسلام من صحابة رسول الله بعد ألف وأربعمائة سنة، لتكون الطامة الكبرى المفرقة للأمة، لتقع في أحضان الشر بأن يلعن آخر هذه الأمة أولها.

إنهم ينسون فضلهم الثابت قطعاً في القرآن الكريم، وفي آيات كثيرة تشيد بأعمالهم الجليلة، ويتجاهلون الأحاديث الشريفة الصحيحة التي وردت في فضلهم وشأنهم.

ويتنكرون لأعمالهم المجيدة الخالدة في الصحبة ورؤية نور النبوة، والعلم، والفضل، والجهاد مع رسول الله ﷺ، وأنه مات وهو عنهم راض، مع ماقدموا من الهجرة والتضحيات النادرة والفريدة.

والأهم من كل ذلك أعمالهم المأثورة بعد وفاة رسول الله ﷺ من الخلافة له في الحكم والعلم، والفقه، والتدريس، وحمل الدعوة الإسلامية، ونشرها خارج الجزيرة العربية إلى أصقاع العالم بالفتوحات في بلاد الشام حتى وصلوا القسطنطينية، واستشهدوا على أبوابها، وقبر أبي أيوب الأنصاري ماثل فيها، وفي قبرص وما فيها من قبور شهداء الصحابة، ومنهم أم حرام، ووصلوا شمالاً إلى الأناضول حتى أرمينيا وأذربيجان، واتجهوا غرباً لفتح مصر وشمال أفريقيا وبلاد الأندلس ونشروا الإسلام فيها، ويمموا صوب الشرق ففتحوا العراق وبلاد فارس وما وراء النهرين، وقضوا على الطواغيت والحكومات الباغية، وأقاموا حكم الله فيها، وبلغوا الرسالة، ودخل الناس في دين الله أفواجاً على يدي الصحابة رضي الله عنهم.

لذلك أفرد علماء الحديث في الصحاح والسنن وغيرها أبواباً في فضائل الصحابة عامة، وفضائل بعضهم خاصة، مما يطول البحث فيها.

وصنف عدة علماء من السلف والخلف كتباً في فضائل الصحابة، منها كتاب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى في فضائل الصحابة.

وكتب بعض المعاصرين صوراً من حياة الصحابة، وأفرد بعضهم كتاباً لكل صحابي من الصحابة المشهورين، وكتباً في الصحابة الذين لم يشتهروا.

وإن شتم الصحابة، والطعن بهم، سبب لتفريق الأمة، وتمزيق المجتمع، ونزول البلاء، وفتح باب للأعداء للغزو الفكري والاستعمار الثقافي.

فإذا رأينا أو سمعنا أحداً يشتم الصحابة، أو يلمزهم، وخاصة الخلفاء الراشدين وكبار الصحابة، ولو بشبهة تافهة، أو حجج واهية، فهو إما جاهل بهم ،غبي بحالهم، ويطعن بهم كما يطعن الغرب بمحمد ﷺ لجهلهم بسيرته العطرة، وإما شعوبي حاقد على هذه الأمة، ويريد إثارة النعرات القومية، والإقليمية، والطائفية، وإما مخرب يسعى لتشتيت المسلمين وتمزيقهم، وتفريق شملهم، وبث الفرقة بينهم للانشغال عن العدو الحقيقي، والتنكب عن الرسالة الخالدة وقد يصل الأمر إلى الكفر -والعياذ بالله- وهذا الوصف نترك شأنه للقضاء ليبت في تهمته، ويحقق فيها، ويقرر الحكم العادل المناسب فيها.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «اختلف في ساب الصحابة، فقال عياض: ذهب الجمهور إلى أنه يعزر، وعن بعض المالكية: يقتل، وخص بعض الشافعية ذلك بالشيخين والحسنين، فحكى القاضي حسين في ذلك وجهين، وقواه السبكي في حق من كفر الشيخين، وكذا من كفر من صرح النبي بإيمانه، أو تبشيره بالجنة إذا تواتر الخبر بذلك، لما تضمنه من تكذيب رسول

الله ﷺ»[1].

والمطلوب اليوم من المسلمين وحدة وطنية بين الجميع بالتواؤم والتوافق والاحترام المتبادل، والتخطيط للمستقبل، وعدم فتح الثغرات التي نرى آثارها المدمرة في بعض البلاد العربية والإسلامية.

ومن مخازي العصر، وعلائم الخزي والعار أن يلعن آخر هذه الأمة أولها، وأن نسير في ركب الأعداء في تشويه التاريخ الإسلامي، وأن نطعن في قادة المسلمين ورجالاتهم وأئمتهم وعلمائهم، وأن نشغل أنفسنا بما لايفيد في الحياة ولا يجدي في العمل.

وبذلك يكون ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ على صراط الله المستقيم، والهدي القويم، ليكونوا نسيجاً واحداً، وتتمثل فيهم المعية حقاً وحقيقة مع رسول الله، ويتمثل فيهم الإسلام صدقاً وعملاً ويتصور بهم القرآن واقعاً وحياة.

كل هذا هو المبتدأ في الآية الكريمة ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ والخبر هو بيان وصفهم بإجمال فهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾ فلهم صفتان: الرحمة فيما بينهم، والشدة على الكفار.

فالمسلمون رحماء فيما بينهم، فهذا سلوكهم، وهذا شأنهم، وهذا تعاملهم وصفاتهم، يرحم بعضهم بعضاً، ويعطف بعضهم على بعض، ويحنو كبيرهم على صغيرهم، ويساعد قويهم ضعيفهم، ويتكافلون فيما بينهم في السراء والضراء، وهم يد متكاتفة على من سواهم، فالراحمون يرحمهم الرحمن، وارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، ومن لا يرحم لا يرُحم.

---

(١) فتح الباري ٦٠٧/٨ ط أبي حيان في نهاية حديث «لا تسبوا أصحابي» رقم ٣٦٧٣، وعند مناقب أبي بكر الصديق ﷺ، وسبق بيان الحديث هامش/٢.

فهم رحماء فيما بينهم ليكونوا أقوياء، ويتألم بعضهم لألم بعض، ويفرح لفرحه، ويحزن لحزنه في المآسي والويلات، ويتعاونون في النكبات، قلبهم واحد، كما صورهم رسول الله: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى»[1]، ولذلك قرر الفقهاء وجوب مؤازرة المسلم للمسلم إذا اعتدي عليه في أي مكان، أو احتل العدو أرضه، أو واجهه في معركة وقتال.

والمؤمنون أشداء على الكفار، ليقفوا لهم بالمرصاد، ويعدوا لهم العدة من القوة والتخطيط والتدبير، وإظهار الصلابة، ليكونوا على الأقل كالند للند، إن لم يعلوا عليهم، ويسموا فوقهم، فأقل الدرجات المعاملة بالمثل في الحرب والسلم، والمكر والخديعة، والتسلح والتدبير.

أما اليوم فالصورة معكوسة تماماً حيث نرى الأنس واللطف مع الأعداء، والقسوة والشدة مع الأصحاب، حتى يقول أحد الرؤساء عن رئيس دولة العدو الغاصب المحتل، يقول عنه: السيد أولمرت، ثم يقول في نفس الخطاب عن رئيس وزراء السلطة الذي يختلف معه في الرأي: حقيراً وكلباً وماكراً ،ونرى اليوم لقاءات واجتماعات وموائد واحتفالات وتعاونا مع الأعداء، وقطيعة وتدابر وانقسامات مع أبناء الأمة والوطن الواحد ،كما نرى اليوم معاهدات واتفاقيات مع الأعداء وترحيبا بهم، ثم إغلاق للحدود، ومنع الدخول واشتراط التأشيرات، والذل والإهانات في السفارات وعلى معابر الطرقات لأبناء الأمة.

---

(١) هذا الحديث أخرجه البخاري ٥/٢٢٣٨ رقم ٢٥٨٦، ومسلم ١٦/١٤٠ رقم ٢٥٨٧.

هذا واقع المسلمين اليوم، فكيف يعتزون؟ وكيف تكون لهم القوامة؟ وكيف يسود النور؟ وكيف ينتصرون ويتقدمون؟ وصفات القرآن فيهم معكوسة، وهل يطبقون القرآن ليتحقق لهم الوعد الصادق من الله تعالى؟ أم ينبذون كتاب الله وراء ظهورهم، ثم يحلمون بالفوز والنصر والتفوق؟

نسأل الله أن يردنا إلى ديننا رداً جميلاً، لنعمل بالقرآن وهدي الإسلام، ونكون حقيقة مع رسول الله في الهدي القويم، ونوحد الصف أمام العدو، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

والحمد لله رب العالمين.

رابعاً: الرسول ﷺ زوجاً مثالياً

الحمد لله الذي خلق الأزواج كلها، وجعل الزواج فطرة بشرية، والصلاة والسلام على رسول الله، الأسوة والقدوة للمسلمين في الأمور كلها، والمبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى أصحابه الذين استنوا بسنته، واقتدوا بهديه، وصوّروا لنا حياته، ونقلوها للأمة حتى تقوم الساعة هدياً ونبراساً وأنموذجاً، وبعد:

فإني أعرض صورة مصغرة عن سيرة رسول الله ﷺ من ناحية حياته الزوجية، وكيف كان زوجاً مثالياً في الحياة، وأنموذجاً وقدوة للناس أجمعين.

أولاً: مقدمات:

نقدم بين يدي البحث مقدمتين سريعتين تمهيداً للموضوع:

١- **الزواج فطرة بشرية** للناس جميعاً، فالله تعالى خلق الذكر والأنثى للتكامل وإبقاء النوع البشري، وحصر العلاقة الجنسية بين الذكر والأنثى بالزواج، صيانة للأعراض، وحفظاً للصحة وحرصاً على طهارة الإنجاب، وحفظ الأنساب، ودرءاً لكل مفسدة جسدية في الشذوذ الجنسي، وصيانة من التعرض لكل مرض خبيث، وتأسيساً للأسرة، ورعاية للأولاد والأحفاد، وقياماً بواجب التربية، ومسؤولية الرعاية من الأمهات والآباء، ليكون الزواج الوسيلة المثالية والوحيدة للعلاقة بين الذكر والأنثى.

وهذه **العلاقة الزوجية المصونة المطهرة** التي سنّها الشرع الحنيف طبقها رسول الله ﷺ، والتزم بها الصحب الكرام، وسلك منهجها التابعون ومن تبعهم بإحسان، وهي المصدر السامي المقدس للأسرة المسلمة التي اعتز بها الآباء والأجداد، ويحرص عليها المسلمون في كل زمان ومكان، ويلتزمون بها

في الماضي والحاضر والمستقبل، وخاصة إذا كان الزواج على المنهج الإسلامي الكامل في اختيار الزوجين، وحسن المعاشرة بينهما، وتحمل كل منهما واجباته غير منقوصة، مع التعاون في شؤون الحياة، وتربية الأولاد، وصيانة الأسرة من الأهواء والفساد ومناعتها من بذور الشر من الإنس والجن، لتكون الأسرة لبنة صالحة قوية متينة سليمة، لبناء المجتمع الإسلامي الرشيد التي تتمثل فيه جميع قيم الشرع الحنيف وأحكامه.

ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «من أحب فطرتي فليستن بسنتي، ومن سنتي النكاح»[1] وقال رسول الله ﷺ: «الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة»[2] وقال أيضاً: «من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه».

٢- **الرسول قدوة في جميع مجالات الحياة**، فقد وصفه رب العالمين، وحدد حياته، ليكون قدوة كاملة، وأسوة مثالية، وأنموذجاً صافياً خالصاً للمسلمين، فقال تعالى: ﴿ **لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا** ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وهذه القدوة الكاملة، والأسوة الشاملة **لجميع مجالات الحياة**، من خصائص رسول الله ﷺ بين الأنبياء والمرسلين، وبين القادة والزعماء والمصلحين والدعاة والعلماء، ليكون نوراً، وسراجاً منيراً أمام الجميع ليقتدوا به، ويهتدوا بهديه، ويرمقوا جوانب حياته ليلتزموا بها، ليحظوا بالسعادة في الدنيا، والفوز والفلاح في الآخرة، متوقفين عند قول الله تعالى: ﴿ **وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ**

---

(١) أخرجه الشافعي في الأم ١٤٤/٥، والبيهقي ١٧٨/٧، وابن ماجه ٥٩٢/١.

(٢) أخرجه مسلم ٥٦/١٠ رقم ١٤٦٧.

وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وإذا حصرنا القدوة والأسوة برسول الله ﷺ **زوجاً مثالياً**، فإن بعض الأنبياء والمرسلين لم يتزوجوا أصلاً، فلا يصلح قدوة في الزواج، وبعضهم كان زواجه حسب شرعه المؤقت، وأعرافه الخاصة، فلا يصلح قدوة دائمة عامة، بل لم ينقل عن رسول أو نبي صورة كاملة عن حياته الزوجية ليتأسى به قومه وأتباعه، وكثير من القادة والزعماء والعظماء في التاريخ انحصرت عظمتهم وعبقريتهم في مجال واحد أو أكثر، ولكن لم يكونوا قدوة في الزواج، بل كانت سيرتهم في هذا المجال مشينة، وتكثر فيها المخازي والفضائح والرذائل والانحراف حتى تصل إلى باب الشذوذ والتندر، مما لا مجال لذكر الأمثلة في ذلك، فسيرتهم الشخصية، وتاريخهم الداخلي تقشعر منه الأبدان، ويربأ عنها الشخص العادي المتزن العاقل مما صدر حتى في العصر الحاضر من الرؤساء والأبطال والمفكرين والقادة.

ثانياً: ابتداء الزواج بخديجة رضي الله عنها:

أول خطوة لرسول الله ﷺ **بالزواج كانت من خديجة بنت خويلد القرشية** رضي الله عنها، وكانت ثيباً، وقصدها أشراف مكة يطلبون الزواج منها فردّهم، وكانت ذات شرف ومال وفير، وتستغله بالتجارة المحلية والخارجية في رحلتي الشتاء والصيف اللتين اشتهرت بهما مكة المكرمة واعتمدت عليهما في رزقها ومعيشتها، ولما بلغها عن محمد بن عبد الله مابلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، طلبت منه أن يحمل تجارتها للشام، وأرسلت معه غلامها ميسرة ليساعده، وعاد رسول الله ﷺ من رحلة الشام بأرباح وفيرة، وسمعة فريدة، فلما رجع غلامها ميسرة حدثها عن أمانة محمد بن عبد الله،

وأخلاقه، وشمائله، وكراماته، وحسن معاملاته، ودماثة خلقه، مما رغبها به فطلبت بنفسها الزواج منه في قصة طريفة وممتعة، وشروط باهرة ومغرية، وكان عمرها أربعين سنة، وعمره خمساً وعشرين سنة[1].

وكانت **الحياة الزوجية** بين رسول الله ﷺ وبين خديجة الكبرى **مثلاً أعلى في حسن المعاشرة، والمعاملة،** والصفاء، والمودة، والسكن، والاحترام المتبادل طوال ثمان وعشرين سنة.

ووضعت خديجة رضي الله عنها أموالها تحت تصرف رسول الله ﷺ في الاستثمار والمتاجرة وفي الإنفاق والتصرف.

وحُبب لرسول الله ﷺ **الخلوة في غار حراء قبل البعثة،** وكان يقيم فيه اليومين والثلاثة والأربعة والخمسة والستة أيام، وكانت خديجة رضي الله عنها تؤمن له كل متطلبات الحياة عامة، والخلوة خاصة، وتجهزه بالطعام والشراب في كل مرة، وإن تأخر في العودة هيأت له الطعام والحاجات وأرسلتها إلى غار حراء، تودداً له، وتلبية لرغبته في الخلوة، وبعد معرفة أخلاقه السامية، وفضائله العالية، ومكارمه الفريدة التي استقرت في نفسها وتركت أعظم الأثر، وأنجبت منه الأولاد، ومات الصبيان: القاسم والطيب والطاهر، وبقي البنات الأربع: رقية وزينب وأم كلثوم وفاطمة الزهراء[2].

ويظهر ذلك جلياً عندما **فاجأه الوحي بغار حراء** ، وشده جبريل إلى صدره، حتى خاف على نفسه ورجع من غار حراء متزملاً منادياً «زملوني زملوني» وطلب الغطاء وقال: «دثروني دثروني» وأخبر خديجة رضي الله عنها

---

(١) سيرة ابن هشام ١/١٨٧.

(٢) سيرة ابن هشام ١/١٩٠.

الخبر، وقص عليها ماحدث، ثم قال: «لقد خفت على نفسي» وهنا ظهرت مكانته في نفسها، وظهر ما استقر في قلبها، وفاضت مشاعرها تجسد ذلك، وتهدىء من روعه بما يدل على عقلها الراجح، ونفسها الزكية، ووفائها وإخلاصها، وتقديرها للأمور في بيان نتائج فضائله، فقالت له: «كلا والله لا يخزيك الله أبداً» وعللت ذلك وأقامت البراهين والأدلة على قولها بما شهدته من القيم، فقالت: «إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتعين على نوائب الدهر»[1]، ثم طلبت منه أن يصحبها إلى ابن عمها العالم بالأديان، الخبير بالأعمال «ورقة بن نوفل» الذي كشف السر وأن الذي رآه محمد في غار حراء هو جبريل عليه السلام، وهو الناموس الذي يأتي الأنبياء والمرسلين، إلى آخر القصة، فأدركت خديجة رضي الله عنها أن محمداً نبي ورسول، فآمنت به، وصدقته، فكانت أول امرأة تدخل الإسلام، وتعلن الإيمان، وصارت **سيدة الإسلام الأولى** ، ولها مكانتها وشمائلها وفضلها التي تستحق بحثاً خاصاً.

وشاركت خديجة رضي الله عنها رسول الله ﷺ **في متاعبه ومصاعب الدعوة**، وتكذيب قومه، وإيذائهم له، فكانت **نعم المؤول والمساعد** لتخفيف ذلك عنه، ليعود مطمئناً في حياته الزوجية، وأنسه لأسرته ولأولاده، ووضعت جميع أموالها في سبيل الدعوة والداعية رضي الله عنها وأرضاها، وكانت تضحي بمالها في مرضاة الرسول والرسالة، وتقديم العون أثناء شظف العيش والمضايقات والمحاصرة في الشعب، مع قيامها بتربية أولادها تربية رفيعة كاملة رقيقة سامية، وتمنحهم الحب والحنان والرعاية، وتتكفل بحاجاتهم.

---

(١) مسند أحمد ٦/٢٢٣ رقم ٢٥٩٠٧.

واستمرت هذه **الحياة الزوجية المثالية السعيدة** حوالي ثمانية وعشرين عاماً، ولم يتزوج رسول الله ﷺ طوال هذه المدة زوجة أخرى، مع أن التعدد كان عادياً ومألوفاً، بل ومرغوباً وميسراً.

وفي العام الثاني عشر للبعثة النبوية **مات أبو طالب**، عم رسول الله ﷺ الذي كان سنده أمام قريش وعبدة الأصنام والأوثان، ثم **ماتت بعده مباشرة خديجة الكبرى** رضي الله عنها التي كانت السند والمعين في البيت والأسرة والراعية للأولاد، وكان رسول الله صلى الله عليها وسلم يثق بها، ويطمئن إليها، ويعتمد عليها، ويفوض لها شؤون البيت والأولاد، ويطبق عليها المبدأ الإسلامي النموذجي والخالد في قوله تعالى: ﴿**وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ**﴾ [النساء: ١٩]، وينفذ عملياً الوصية التي قررها للمسلمين جميعاً: «استوصوا بالنساء خيراً..»[(١)].

كما ينفذ الوصية الخالدة الصادرة منه في قوله عليه الصلاة والسلام: «خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي»[(٢)].

وحزن رسول الله ﷺ لوفاة عمه وزوجته حزنا شديداً، وسمى ذلك العام **عام الحزن**، وترك وفاة خديجة رضي الله عنها فراغاً كبيراً في بيت النبوة، وحزن عليها بأسى شديد، لأن فقدها كان شرخاً كبيراً في حياة الداعية والدعوة، وكان رسول الله ﷺ قد **بشرها ببيت في الجنة**، جزاء لأعمالها المجيدة الخيرة.

---

(١) هذا جزء من حديث أخرجه البخاري ١٩٨٧/٥ رقم ٤٨٩٠، ومسلم ٥٧/١٠ رقم ١٤٦٨.

(٢) رواه الترمذي وصححه ٣٩٤/١٠، وابن ماجه ٦٣٦/١، والطبراني عن أبي هريرة وابن عباس ومعاوية رضي الله عنهم، الفتح الكبير ١٠١/٢.

ولم ينس رسول الله ﷺ **خديجة بعد وفاتها**، وكان يذكرها في كل حين ووقت ومناسبة، وقد تركت له البنات الأربع، فكن ذكرى خالدة لها، وكان رسول الله ﷺ يبر خديجة بعد وفاتها في بناتها، وفي أقاربها وأهلها، ويصل صويحباتها، ويرسل لهن الهدايا حباً بخديجة رضي الله عنها التي يكثر من ذكرها حتى أثار ذلك غيرة السيدة عائشة رضي الله عنها التي لم تعاصر خديجة من جهة، وكانت أحبَّ الزوجات الموجودات عند النبي عليه السلام فيما بعد، ومع ذلك قالت: «ما غرت من امرأة (زوجة = ضرة) قط كما غرت من خديجة»، وكانت تغار من خديجة في قبرها من كثرة ثناء النبي ﷺ وذكره لها، حتى صارحته بذلك، وداعبته معاتبة، ومذكرة بوضعها، وأنها أحب الزوجات، وأنه تزوجها وهي بكر وصغيرة، بينما خديجة كانت ثيباً وكبيرة، فقالت: «مالك ومالها، وهي امرأة في الغابرين، وقد أبدلك الله خيراً منها»، فأجاب بصراحة، موضحاً مكانة السيدة خديجة رضي الله عنها، ومشيراً إلى بعض فضائلها وشمائلها ومآثرها، فقال: «لا والله ما أبدلني الله خيراً منها، فقد آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها، ورزقني منها الولد».

ثالثاً: الزواج الثاني وما بعده:

بقي رسول الله ﷺ بعد وفاة خديجة رضي الله عنها بلا زوجة، وهو يحمل أعباء الدعوة كالجبال الشم، مع تحمل مشاق البيت والأولاد والأسرة، ثم كان زواجه الثاني من **سودة بنت زمعة** رضي الله عنها بمكة، وقبل الهجرة، وأصبحت الزوجة الثانية، وأماً للمؤمنين، ثم تزوج **عائشة** رضي الله عنها في مكة، ولم يدخل بها، ولم يبن عليها إلا بعد الهجرة، في المدينة.

ثم فرضت الظروف نفسها على رسول الله ﷺ **تعدد الزوجات** في المدينة المنورة وذلك لأسباب متعددة، وحالات إنسانية، وحكم كثيرة، مما لامجال لعرضه تفصيلاً هنا، وسنعرض بعضه بعد قليل، لكن نشير إلى بعض الزوجات.

فقد تزوج رسول الله ﷺ **زينب بنت خزيمة بن الحارث** الهلالية من بني عبد مناف وذلك في رمضان بعد ٣١ شهراً من الهجرة، ومكثت عنده ثمانية أشهر ثم ماتت رضي الله عنها، وكانت قبل ذلك تحت عبد الله بن جحش رضي الله عنه الذي قتل في أحد شهيداً، فتزوجها رسول الله إكراماً له، وتكريماً لها، وكانت تسمى أم المساكين[1].

كما تزوج رسول الله ﷺ **أم سلمة هند بنت أبي أمية بن المغيرة**، القرشية المخزومية، وكانت زوجة لابن عمها عبد الله بن عبد الأسد، أخي رسول الله من الرضاع، وهاجرت معه إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، ثم مات شهيداً، وترك لها أولاداً، فأراد الرسول ﷺ أن يجبر خاطرها، ويرعى أولادها، فطلبها، فاعتذرت بأنها كثيرة الغيرة، وقالت: إني مُصيبة أي ذات صبيان صغار، فأخبرها بأنه سيدعو لها بذهاب الغيرة ، وأن الله سيكفيها صبيانها، فقبلت، وكان لها **شأن كبير في صلح الحديبية**، وفي إبداء مشورتها لإنقاذ الوضع.

وكان رسول الله ﷺ نعم الأب والمربي والراعي لأولادها، ويكفي قصة واحدة، وهو مايحدثنا به ابنها الصغير عمر الذي كان يجلس مع رسول الله ﷺ على المائدة فيرعاه، ويربيه، ويرشده، قال عمر رضي الله عنه عندما كبر، يحدث عن نفسه: «كانت يدي تطيش في الصفحة (وعاء الطعام، أي يمد يده إلى أنحائها)، فلم ينهره رسول الله ﷺ، ولم يضربه، وإنما أرشده للخير وآداب

---

(١) سيرة ابن هشام ٦٤٧/٢.

المائدة، ليكون ذلك تعليماً للمسلمين جميعاً، فقال عليه الصلاة والسلام: «يا غلام، سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك»[1].

وتزوج رسول الله ﷺ **جويرية بنت الحارث**، الذي كان سيد قومه وزعيم بني المصطلق، وكانت ضمن السبايا، وبعد قسمة سبايا بني المصطلق، وقعت في سهم رسول الله ﷺ، فأطلق حريتها، وتزوجها، مما دفع الصحابة رضي الله عنهم، أن يطلقوا سراح جميع الأسرى والسبايا من بني المصطلق، قائلين: إنهم أصهار رسول الله، فأرسلوا ما بأيديهم، وأعتق بسبب تزوجه بها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فكانت بركة على قومها، وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها: «ما أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها»[2].

وتزوج رسول الله ﷺ **ميمونة بنت الحارث** بعد انتهائه من عمرة القضاء في السنة السابعة للهجرة، لبيان منع النكاح أثناء الإحرام بالعمرة أو الحج، وجوازه قبلهما أو بعدهما[3].

وتزوج رسول الله عليه الصلاة والسلام **حفصة بنت عمر بن الخطاب** التي كانت ذات عقل وفكر، وتزوج **مارية القبطية** التي أهداها له حاكم مصر، ورزقه الله منها الولد، وهو ابنه إبراهيم الذي توفي صغيراً، كما تزوج عليه الصلاة والسلام **صفية بنت حيي بن أخطب**، بعد فتح خيبر، وكان أبوها زعيماً

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري ١٩١/٣ ومسلم ١٥٩٩/٣، وأبو داود ٣١٤/٢، والترمذي ٥٩٠/٥، وابن ماجه ١٠٨٧/٢، ومالك، الموطأ ص ٥٨٠، وأحمد ٢٦/٤، والدارمي ٩٤/٢.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١٦٠/٤، وسيرة ابن هشام ٢٩٤/٢.

(٣) زاد المعاد ٣٣/٣، سيرة ابن هشام ٣٧٢/٢.

لليهود، وقتل، وكانت بارعة الذكاء والفطنة، فأسلمت وحسن إسلامها[1].

كما تزوج أم حبيبة بنت أبي سفيان[2]، كل ذلك لحكم عديدة لامجال لعرضها هنا.

رابعاً: الحكمة من تعدد الزوجات:

كان تعدد الزوجات **معهوداً في التاريخ، ومعروفاً عند الأمم والشعوب،** وكان الأنبياء السابقون يعددون الزوجات، وكذلك القادة والملوك والحكام والزعماء، وكان العدد غير محصور.

وجاء الإسلام **وأقر تعدد الزوجات،** ولكنه قيده بحد أعلى، **وهو أربع زوجات،** لحكم كثيرة لا مجال لعرضها الآن، ولكن اختص الله رسوله ﷺ **بالإذن بالزواج بأكثر من أربع زوجات** وأباح له ذلك، وهنا يتبادر السؤال بسرعة لدى القارىء والسامع والمتعلم **عن حكمة تعدد الزوجات** عامة، وخاصية الرسول ﷺ بالزيادة عن ذلك، حتى اجتمع عنده ﷺ في وقت واحد تسع زوجات، بالإضافة لمن مات منهن (وهما اثنتان)، ومن طلقهن (وهما اثنتان)، فبلغ المجموع ثلاث عشرة زوجة[3]، ونكتفي بالاختصار، والإشارة إلى الإجابة، للتنبيه، والتذكير، والإعلام، والتحذير من سوء الظن، ولدفع الشبهات التي يثيرها المستشرقون وأعوانهم في هذا التعدد:

١- لم يعدد رسول الله ﷺ الزوجات **في شبابه وكهولته** حتى بلغ الثالثة والخمسين، مما يبعد الشُبه والافتراءات التي أثارها بعضهم في فرط الناحية

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٣٣٦، ٣٣٩.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/٦٤٣.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/٦٤٧.

الجنسية عند رسول الله ﷺ.

٢- لم يعدد رسول الله عليه الصلاة والسلام الزوجات **طوال حياة الزوجة الأولى خديجة** رضي الله عنها في العهد المكي، واستمر ذلك حوالي ثمان وعشرين سنة، وكان أول زواج، أو تعدد نظري، في مكة لسودة، ثم لعائشة، دون أن يدخل بعائشة إلا بعد الهجرة.

٣- وقع التعدد لزواج الرسول ﷺ **عملياً في المدينة المنورة، وقد جاوز الثالثة والخمسين من عمره،** وقد أصبح رئيس دولة، وإماماً، وقاضياً، ومفتياً، ومبلغاً للدعوة، وأسوة عملية للصحابة خاصة وللمسلمين عامة حتى تقوم الساعة.

٤- كان التعدد، والزيادة على الأربع زوجات يهدف **لتأمين أداء الرسالة وتبليغها،** مما أوجب على أمهات المؤمنين، وزوجات الرسول، أن يتتبعن جميع مايصدر عن رسول الله ﷺ في بيته، وخاصته، وأسرته وأولاده، وعباداته طوال اليوم والليلة، وتصرفاته مع كل من قصده، كبيراً وصغيراً، مسلماً وغير مسلم ، لينقلن الأحكام الشرعية كاملة في جميع شؤون الحياة الخاصة والعامة، الزوجية والاجتماعية، القريبة والبعيدة، ويبلغنه إلى الصحابة، ثم إلى سائر المسلمين، فكانت بيوته **ملجأ للفتوى،** وخاصة في الأمور النسائية التي تعرفها المرأة خاصة وتفاتح بها إحدى الزوجات، ليعرضن ذلك على رسول الله، ويأخذن الفتوى والجواب، ثم يبلغنه للسائلات أولاً، وللصحابة والتابعين ثانياً بعد وفاة رسول الله ﷺ، **فكانت بيوت النبي مدرسة للتعليم عامة،** ولمسائل النساء خاصة، وحفظت أمهات المؤمنين عن رسول الله ﷺ **آلاف الأحاديث** التي روينها إلى

الصحابة وسائر المسلمين، وكانت السيدة عائشة رضي الله عنها أكثر نباهة وتعلماً وذكاء وفطنة، حتى قيل «خذوا نصف دينكم من هذه الحميراء» وصارت فيما بعد أحد المكثرين الستة لرواية الحديث الشريف، وكذلك روت سائر أمهات المؤمنين، كما هو ثابت في مسانيدهن عند الإمام أحمد في مسنده، مع كتب الصحاح والسنن وغيرها.

وإن عالم النساء والمسلمين **مدين لنساء الرسول** ﷺ في حفظ السنة والسيرة، ونقلها، وتبليغها، مما تعجز عنه قطعاً ويقيناً واحدة أو اثنتان أو أربعة، فكان التعدد، والزيادة عن الأربع زوجات **ضرورة دينية وشرعية**.

٥- ثبت أن ٩٠ بالمائة من **الأحكام المتعلقة بالحياة الأسرية** نقلت من قبل الزوجات الطاهرات، مما يستدعي توفر عدد كبير لإمكان حفظها ونقلها، حتى لا تضيع الشريعة، ولأن رسول الله قدوة وأسوة للمسلمين في جميع شؤون الحياة الخاصة والعامة، حتى السرية في أمور البيت والأسرة والحياة الزوجية، لتكون هدياً رشيداً للمسلمين.

٦- إن وجود عدد من الزوجات في بيت النبوة **ضرورة دينية ماسة**، ليقابل العدد الكبير من الرجال في المسجد، وسائر نواحي الحياة.

٧- إن وجود زوجة واحدة تقوم بأعباء بيت النبوة والرسالة في القضايا الخاصة والعامة، **يعدّ استحالة كاملة**، مع الاحتمال الأكيد لما يصيب النساء من عادة شهرية أو حمل أو نفاس، مع احتمال السفر والمرض وزيارة الأهل، والقيام بالشؤون الخاصة والاجتماعية.

٨- كان تعدد الزوجات لتتم **المراقبة عن كثب، والمتابعة عن قرب، والمعرفة المباشرة** لما تحمّله رسول الله ﷺ من العبء الثقيل في حمل الرسالة وأدائها

قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]، علماً بأن الله تعالى كلف زوجات النبي عليه الصلاة والسلام **تلقي الكتاب والسنة في بيت النبوة** لنقلهما إلى النساء المسلمات وتعليمهن، قال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ ...﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ...إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، ليصل إلى التكليف بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٢، ٣٣، ٣٤]، ولم يكن التعدد لأغراض دنيوية، أو أهواء نفسية، أو مطامع للجاه والسلطان.

٩- كان من الأهداف الرئيسة لتعدد الزوجات للنبي ﷺ **ربط الأقوام والقبائل بأواصر القربى والمصاهرة والقرابة** مما يلعب دوراً عظيماً في تماسك المجتمع وتكافله، وافتخار القبائل بمصاهرة رسول الله، ومايترتب على ذلك من صلات وثيقة ومحبة وتقدير وصلة رحم، مما يدفع بقية المسلمين لإكرام أصهار رسول الله ﷺ، مع إطفاء فتنة اليهود الذين نقضوا العهد، وقتل بعضهم، فتزوج صفية لإنهاء الضغائن.

١٠- تزوج رسول الله علية الصلاة والسلام أحياناً **لتشريع أحكام، وإبطال قيم الجاهلية**، ليكون المثل الأعلى في ذلك، مثل زواجه من زينب بنت جحش، وهي في الأصل ابنة عمته، وذلك بعد أن تزوجها زيد بن حارثة رضي الله عنه، وهو ابنه سابقاً من التبني، وبعد طلاقها من زيد زوجه الله تعالى بها بنص القرآن، لإبطال التبني ومايترتب عليه من آثار، حتى كان ذلك شاقاً على رسول الله نفسه، ولكن الله كلفه بذلك،

فقال تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

١١- كان رسول الله ﷺ يريد أحياناً **أن يرد الفضل لأهله، ويجزي من أحسن إليه** وإلى الدعوة بالمبادرة لدخول الإسلام، والدفاع عنه، وتلقي الأذى في سبيله، وفي طليعة هؤلاء أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فتزوج ابنته عائشة رضي الله عنها، ثم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فتزوج ابنته حفصة رضي الله عنها.

وفي هذا الإطار تزوج بعض نساء الصحابة الذين أبلوا بلاءً حسناً في الجهاد والقتال، حتى نالوا الشهادة في سبيل الله، مما ترك أشد الأثر المادي والمعنوي على زوجاتهم وأولادهم، فتزوج رسول الله بزينب بنت خزيمة الهلالية، وأم سلمة هند بنت أبي أمية القرشية.

١٢- قبل رسول الله ﷺ الزواج من مارية القبطية **التي أهداها له المقوقس حاكم مصر**، تقرباً من رسول الله ﷺ، ولا يزال أهل مصر يعتزون ويفتخرون ويتباهون بمصاهرة الرسول عليه الصلاة والسلام لهم.

يقول الشيخ محمد علي الصابوني: «وهناك حكم عديدة لزواج النبي ﷺ، نوجزها في أربع: الحكمة التشريعية، والتعليمية، والاجتماعية، والسياسية»[1].

---

(١) درة التفاسير ص ٤٢٦.

خامساً: حسن المعاملة:

كان رسول الله ﷺ مثلاً أعلى في حسن معاملته لزوجاته، وذلك في جميع الجوانب ومنها:

١- كان رسول الله ﷺ **يقدم الصداق** (المهر) لكل زوجة، دون مغالاة ولا تطرف ولا إفراط، مما روته السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: «كان صداق النبي ﷺ لأزواجه ثنتي عشر أوقية ونشاً، فذلك خمسمائة» (درهم)[١].

وكان عليه الصلاة والسلام يعمل وليمة لكل زوجة تكريماً لها ولأهلها ولأهله، وأمر المسلمين بذلك «ولو بخاتم من حديد»[٢]، وقال لعبد الرحمن بن عوف عند زواجه: «أولم ولو بشاة»[٣].

٢- **العدل بين الزوجات**: كان رسول الله يعدل بين الزوجات في القسم بينهن في المبيت، والنفقة والزيارة، وحتى في القبلات، وكان يسأل عنهن، ويطوف عليهن كل يوم، ثم يبيت عند صاحبة الحق باليوم، وكانت كل واحد منهن ترى في رسول الله ﷺ أنه **أطلق الناس وجهاً وبشاشة**، وأنه ألطفهم مع نسائه، وكانت كل واحدة ترى **أنها أقرب إلى قلب رسول الله** ﷺ، لكمال مروءته فنفذت رقته، وأدبه الجم إلى قلوب نسائه.

وقالت عائشة رضي الله عنها: «كان النبي لا يفضل بعضنا على بعض في القسم من مكثه عندنا، وكان قلَّ يوم إلا وهو يطوف علينا جميعاً ، فيدنو

---

(١) أخرجه مسلم ٥/٢٢٩ رقم ١٤٢٦، زاد المعاد ٥/١٦٠.

(٢) أخرجه البخاري، ومسلم ٥/٢٢٨ رقو ١٤٢٥.

(٣) أخرجه مسلم ٥/٢٣٠ رقم ١٤٢٧، زاد المعاد ٥/١٦٠.

من كل امرأة من غير مسيس حتى يبلغ التي هو يومها فيبيت عندها»[1].

وإذا أراد رسول الله ﷺ سفراً **أقرع بين نسائه**، فأيتهم خرج سهمها خرج بها[2].

أما ميله القلبي فكان لعائشة رضي الله عنها لأسباب عدة، وأنه كان يصرح بذلك ويعتذر أنه لايملك القلب، لعدم التحكم به، ويقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» يعني القلب[3].

واستمر هذا العدل حتى مرض الموت، ولما مرض عليه الصلاة والسلام، واشتد مرضه استأذن زوجاته للبقاء في غرفة عائشة رضي الله عنها لعدم استطاعته زيارتهن، فوافقن على طلبه.

٣- **خدمة الأهل والزوجات**: كان رسول الله ﷺ، مع أعبائه الشاقة، وأعماله الجسيمة، إذا دخل بيته شارك أهله أعمال البيت، وكان في خدمة أهله ومساعدتهم، وكان يخصف نعله، وسأل رجل عائشة رضي الله عنها: هل كان رسول الله يعمل في بيته؟ فقالت: «نعم، كان رسول الله يخصف نعله، ويخيط ثوبه ، ويعمل في بيته كما كان يعمل أحدكم في بيته»[4].

---

(١) أخرجه أبو داود رقم ٢١٣٥، وسند حسن، زاد المعاد ١٣٧/٥.

(٢) أخرجه البخاري ١٦١/٥، ٢٧٢/٩، ومسلم رقم ٢٤٤٥، وزاد المعاد ١٣٦/٥.

(٣) أخرجه الترمذي رقم ١١٤٠، وأبو داود رقم ٢١٣٤، والنسائي ٦٤/٧، والدارمي ١٤٤/٢، وابن ماجه رقم ١٩٧١، وإسناده قوي، وابن حبان رقم ١٣٠٥، والحاكم ١٨٧/٢ وصححه ووافقه الذهبي، زاد المعاد.

(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه.

٤- **مراعاة السن والفروق الفردية:** فقد كانت عائشة رضي الله عنها صغيرة السن، فكان يعاملها حسب سنها، فقد **سابقها في الركض** فسبقته، وبعد عدة سنوات، وبعد أن حملت اللحم، سابقها ثانية، فسبقها، فقال لها: «**هذه بتلك**».

وكان الحبشة يتبارون ويتمرنون على المصارعة في مسجد رسول الله ﷺ، وأرادت عائشة رضي الله عنها أن تراهم، فأذن لها في ذلك حتى وضعت رأسها على كتف رسول الله وهي تنظر، حتى أكتفت وانصرفت.

ودخل أبو بكر الصديق ﷺ على ابنته عائشة، فوجد عندها جاريتين (طفلتين) تغنيان، فضرب أبو بكر ابنته، وأنبّها على فعل ذلك في بيت رسول الله ﷺ، فالتجأت إلى رسول الله واحتمت به من أبيها، لما تعرف من لطف الرسول ورحمته وأنسه، وقال له رسول الله ﷺ: إنهما صغيرتان ولا حرج على الصغار.

٥- **تطييب خاطر الزوجات إذا مسهن سوء،** ففي أحد الأيام خاطبت زوجتان من زوجات رسول الله زوجته الثالثة صفية بنت حيي بن أخطب باللمز والسخرية، وعيَّرانها بأنها كانت يهودية وبنت يهودي، وقالتا لها: «يا بنت اليهودي» مما أثار حفيظتها، فاشتكت ذلك إلى رسول الله ﷺ، فطيب خاطرها قائلاً لها: «ألا قلتِ: فكيف تكونان خيراً مني، وزوجي محمد، وأبي هارون، وعمي موسى» فخرجت راضية النفس قريرة العين.

وفي مرة ثانية أشارت إحدى الزوجات إلى أخرى أنها قصيرة، فنبهها رسول الله ﷺ، ونهاها عن الغمز واللمز، والتعيير والغيبة، وقال لها: «لقد قلت كلمة لو خلطت بماء البحر لأفسدته».

٦- **رعاية الربائب**: كان رسول الله ﷺ يرعى أولاد زوجاته من غيره، رعاية مادية ومعنوية، ويحضنهم، ويربيهم، وكأنهم أولاده، ليعلّم المسلمين المنهج السديد، وما يترك ذلك من أثر عظيم في رعاية الأيتام أولاً، وحفظ العلاقة الحميمة بينهم وبين أمهاتهم، وتوثيق العرى الوثيقة مع زوجاته عندما يرين ذلك لأولادهم، وسبق جواب الرسول ﷺ لأم سلمة التي حرصت على صلتها بأولادها، وكيف وجه الرسول ﷺ ابنها عمر إلى الفضيلة ومكارم الأخلاق، وحسن الأدب.

٧- **الحرص على مشاعر الزوجات**: ويتجلى ذلك من رسول الله على جميع زوجاته، وظهر النبل والرقة والتعاطف مع عائشة رضي الله عنها عند حديث الإفك، فلم يتهمها، ولم يعنفها، ولم يعاتبها، ولم يوجه لها كلمة أو إشارة، وانتظر الوحي، وكان يدخل عليها، ويسأل عن صحتها، ولما مرضت استأذنته أن تُمرّض في بيت أبيها، فأذن لها، حتى نزلت براءتها وطهارتها من السماء، فأرسل لها بالبشرى، في قصة طويلة وطريفة[1].

٨- **مشاورة الزوجات**: كان رسول الله ﷺ ملتزماً بالشورى مع صحابته مع أنه كان غنياً عن ذلك، وكان يشاور زوجاته أيضاً في كل شيء، تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ ... وَإِن كُنَّ أُوْلَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ﴾ [الطلاق: ٦].

وكانت **مشاورته لأم سلمة** بعد صلح الحديبية من أعجب الأمور،

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٢٩٧.

وأشارت عليه أن يبدأ بالتحلل والحلق والتقصير والذبح، فلما رأى الصحابة ذلك أسرعوا للتأسي به والاقتداء بعمله والالتزام بتوجيهاته[1].

٩- استئذان الزوجة حتى للتفرغ للعبادة: فقد سئلت عائشة رضي الله عنها عن أعجب مارأته من رسول الله؟ فقالت: كل أمره كان عجباً، فقد أتاني في ليلتي حتى مسَّ جلده جلدي ، ثم قال: أتأذني لي أن أتعبد لربي؟ فقالت: والله، إني لأحب قربك، وأحب هواك، فتوضأ، وقام يصلي حتى قرأ من سورة آل عمران ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [الآيات: ١٩٠]، وظل يبكي حتى جاء بلال يؤذنه بصلاة الفجر، وسأله عن بكائه، فقال: «نزلت علي عشر آيات من آخر سورة آل عمران، ويل لمن قرأها، ولم يتفكر بها»[2].

وإن جميع هذه الصفات والمعاملات المثالية مع زوجاته **لم يدفعه للتفريط قيد أنملة بوظيفته** تجاه الدولة والأمة، والدعوة والرسالة، التي أحسن أداءها، وبلغها، وجاهد في الله حق جهاده حتى لحق بالرفيق الأعلى، وهذا في حد ذاته **دليل نبوته** واصطفائه واختياره من الله تعالى.

سادساً: معالجة الخلافات الزوجية:

إن زوجات النبي ﷺ من البشر، ولسن معصومات، ويعتريهن ما يعتري النساء من الغضب، والمشاعر، والتأثر، والخواطر، والآمال، وحب رغد العيش، وحسن المعيشة مع كثرتهن، ولقائهن، وافتراقهن، واتفاقهن، واختلافهن، فكان رسول الله مثلاً أعلى، وقدوة، وأنموذجاً صالحاً في معالجة

---

(١) سيرة ابن هشام ٣٠٨/٢.

(٢) تفسير ابن كثير ١٦٤/٢، تفسير القرطبي ١٩٧/٤.

النشوز والخلاف وتلبية الطلبات، وذلك في صور عديدة، منها:

١- بعد أن تزوج رسول الله ﷺ **سودة بنت زمعة** بفترة طويلة، وصدر منها بعض التصرفات، وأحاطت بها بعض الملابسات، فأراد رسول الله لسبب أن يطلقها، فلما سمعت بذلك أحست كأن صاعقة نزلت على رأسها، فأرسلت إليه من يكلمه في شأنها، ثم أسرعت إليه، وقالت له: يارسول الله، مالي رغبة في الدنيا إلا لأحشر يوم القيامة في أزواجك، فيكون لي من الثواب مالهن، ثم وهبت يومها لعائشة، فعدل عن طلاقها، وبقيت مع زوجاته، واستجاب لرجائها وأبقاها عنده(١).

٢- صدر من **حفصة بنت عمر بن الخطاب** رضي الله عنها مايشعر بضيقها، وأحس رسول الله ﷺ منها بالشكوى، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن أرادت سرحتها» فقلب ذلك عالمها رأساً على عقب، وهي الصالحة الصوامة القوامة، وأرسلت الوسطاء لعدم تطليقها، فاستجاب لها(٢).

٣- كان رسول الله ﷺ **زاهداً في الدنيا، متقللاً في المعيشة**، حريصاً على أن يشبع المسلمون، ويأكل الفقراء والمساكين، وهو يقتات القليل، مدخراً أجره ونصيبه للآخرة، وهو راض بذلك رضىً كاملاً، ولكن زوجاته كن كسائر النساء، ويرغبن بلين العيش ورغد الحياة بل ضجرن من القلة، والحرمان، مما ينعم به معظم المسلمين، وتزهو به زوجات الملوك والقادة واتفقن على مطالبة الرسول بالتوسع في متاع الحياة، وأن

---

(١) البخاري، النكاح ٩٨، مجمع الزوائد ٢٤٦/٩.

(٢) أخرجه أبو داود، الطلاق ٣٨، والنسائي، الطلاق ٧٦، وابن ماجه، الطلاق ١، والدارمي، الطلاق ٢، مجمع الزوائد ٢٤٤/٩.

زوجات كسرى وقيصر يتنعمن بالذهب والديباج، وهن محرومات من أبسط زهرة الدنيا، وصرحن بطلبهن، فما كان من الوحي الإلهي إلا أن يطلب من رسول الله ﷺ **التخييرلهن بين الدنيا** والتسريح والطلاق، **وبين الرضا بما قسمه الله لرسوله الكريم في الدنيا** مع الفوز والرضوان في الآخرة، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ [الأحزاب: ٢٨-٢٩]، وبدأ رسول الله ﷺ بأحب نسائه إليه، وأقربهن إلى قلبه، وطلب منها ألا تجيب إلا بعد مشاورة أبويها، وتلا عليها الآيات الكريمة، وخيّرها بين الدنيا والتسريح وبين اختيار الله ورسوله والدار الآخرة، فأجابت على الفور: أفيك أشاور والدي، **وإني لأختار الله والرسول والدار الآخرة**، وعرض التخيير على بقية نسائه، وكن يسألن عن جواب عائشة، ثم يخترن نفس الجواب والاختيار لله وللرسول وللدار الآخرة، ولم يلجأ الرسول ﷺ للتعنيف، والمؤاخذة، والعتاب، والتنديد، والاختلاف، والرجوع لسلطة الزوج، أو تسلطه، ولا للقضاء والمحاكم، وحتى لم يستعن بالوسطاء والمحكمين، وإنما صارحهن مباشرة، وأعطاهن **منتهى حرية الاختيار والرضى**، ليكون القرار نابعاً من القلب والنفس، وليس مفروضاً، تطبيقاً للآية الكريمة: ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وقوله تعالى: ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ ﴾ [الطلاق: ٢]، وهذ منهج سديد، وطريق

رشيد لحل الخلافات الزوجية، مع بقاء المودة والفضل بينهم، وتم حل القضية بحكمة واتزان، وعقل واعتدال، ليكون أنموذجاً وقدوة، ورضي زوجات النبي ﷺ، ورضي الله عنهم، بشظف العيش والضيق القاسي، والفقر، للبقاء عند رسول الله، فكن سعيدات، ومحظوظات، وكن **أمهات للمؤمنين**، ونلن الاحترام والتقدير من المسلمين حتى تقوم الساعة، وقدمهن عمر رضي الله عنه في العطاء حتى على أصحاب بدر، ومنع الله الزواج منهن مطلقاً بعد وفاة رسول الله ﷺ الذي كان أولى بالمؤمنين من أنفسهم، قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ [الأحزاب: ٦]، وفرض الله عليهن الحجاب، ليُسألن من وراء ستار، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

سابعاً: شهادة الزوجات لزوجهن:

إن حسن معاشرة النبي ﷺ لزوجاته، وحسن معاملته لهن، وسيرته في بيته، وصلته مع ربه ، وحرصه لإتمام الدعوة والرسالة، ترك أثراً عظيماً في نفوس الزوجات اللواتي يطلعن أكثر من غيرهن على خبايا الأمور، وجبلة الزوج، وما يكنه من أسرار ودخائل.

ونطقت زوجات النبي عليه الصلاة والسلام **بشهادات صادقة ومعبرة وخالدة في ميزاته**، ليكون ذلك درساً، وتشريعاً لأمته في الأمور الخاصة والعامة، ومر معنا سابقاً **شهادة السيدة خديجة** رضي الله عنها عن صفات رسول الله ﷺ عندما فاجأه الوحي.

وسئلت **السيدة عائشة** رضي الله عنها عن خلق رسول الله، فقالت للسائل: «ألا تقرأ القرآن»؟ قال: نعم، قالت: «**كان خلقه القرآن**».

ولم ينته الأمر بشهادتهن له أثناء حياته، بل كان أثره أبلغ بعد وفاته ﷺ، ويظهر عليهن منظر الفراق الأليم ، والهجران الموحش، وكلما زار أبو بكر ابنته عائشة، أو زار عمر ابنته حفصة رضي الله عنهم جميعاً، وجدها تبكي بحرقة، فيبكيان معهما، ودام ذلك حتى نهاية حياتهن.

ولما مرض النبي عليه الصلاة والسلام مرضه الأخير **مرضت عائشة ألماً عليه**، وتأثراً بما يلاقي من شدة الألم.

ثامناً: الوصية بالنساء:

ونختم هذه النبذة بما وصى به رسول الله ﷺ بنسائه خاصة، وبالزوجات، والنساء عامة، مع ماورد كثيراً في القرآن الكريم في وجوب حسن المعاشرة لهن.

فمن ذلك قوله ﷺ: «**استوصوا بالنساء خيراً**»(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**»(٢).

وكان آخر وصايا رسول الله ﷺ في حجة الوداع، وقبل وفاته بالصلاة، وبالنساء فقال: «**فاتقوا الله في النساء، فإنهن عوان عندكم**، ولا يملكن لأنفسهن شيئاً»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري ١٩٨٧/٥ رقم ٤٨٩٠، ومسلم ٥٧/١٠ رقم ١٤٦٨.

(٢) أخرجه الترمذي وصححه ٣٩٤/١٠ رقم ٣٩٨٦، وابن ماجه ٦٣٦/١، والطبراني عن عائشة وابن عباس ومعاوية، الفتح الكبير ١٠٢/٢.

(٣) مسند أحمد ٧/٥.

ونهى رسول الله ﷺ عن ضرب النساء، فقال: «**لا تضربوا إماء الله**» ثم اشتكى الأزواج عن الحاجة له عند الضرورة، فرخّص في ضربهن، فجاء النساء يشتكين الضرب من الأزواج، فقال: «**ليس أولئك بخياركم**»[1].

وثبت أيضاً قوله عليه الصلاة والسلام: «لا يكرمهن إلا كريم، ولا يضربهن إلا لئيم».

وإضافة إلى ذلك فقد كان رسول الله يحسن معاشرة زوجاته، ويرشد المسلمين إلى **أحكام شرعية في العلاقات الخاصة مع الزوجات**.

وذكر ابن القيم رحمه الله تعالى ماورد عن رسول الله ﷺ مما ينبغي تقديمه على الجماع، من ملاعبة المرأة، وتقبيلها، وقال: «وكان رسول الله ﷺ يلاعب أهله ويقبلها»[2]، وروى عن جابر رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ عن المواقعة قبل الملاعبة»[3].

وكان رسول الله ﷺ «**ينهى أن يطرق الرجل أهله** إذا طالت غيبته عنهم»[4]، وذلك مراعاة لشعور الزوجة، ومنحها الفرصة للاستعداد لاستقبال زوجها، وعدم مباغتتها بالحضور مما قد يؤثر في الثقة بينهم، وللحث على التواد والتحاب بين الزوجين، والتحريض على ترك التعرض لما يوجب سوء

---

(١) أخرجه أبو داود، والحاكم ٢/٢٠٥ رقم ٢٧٦٥.

(٢) زاد المعاد ٤/٢٣١.

(٣) زاد المعاد ٤/٢٣٢.

(٤) أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والتمذي، والدارمي، وأحمد من حديث جابر رضي الله عنه، زاد المعاد ٢/٤١٣.

الظن بالمسلم[1]، وأكد ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «لا تطرقوا النساء، (أي ليلاً بعد السفر) وأرسلوا من يؤذن الناس أنكم قادمون»[2]، ولما قد يجد الرجل زوجته على غير أهبة التنظيف والتزين المطلوب من المرأة، فيكون ذلك سبباً للنفرة بينهما، وقال عليه الصلاة والسلام: «كي تستحد المغيبة، وتمتشط الشعثة»، وخشية أن يجدها على حالة غير مرضية، وقد أمر الشرع بالستر، وخشية «أن يتخونهم ويتطلب عثراتهم»[3].

ورغب رسول الله ﷺ بحسن المعاشرة، فسئل أي النساء خير؟ فقال: «التي تسره إذا نظر إليها، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه فيما يكره في نفسها وماله»[4].

وبعد: فهذه لمحات **من سيرة رسول الله ﷺ في حياته الزوجية،** ليكون مثلاً عالياً، وقدوة حسنة، وأسوة أنموذجياً للمسلمين، ليسيروا على هديه، وليقتفوا أثره، لتتحقق لهم السعادة في الدنيا بجلب النفع لهم، ودفع الشر عنهم، ولتأمين الحياة الرغيدة للزوجة، ولإقامة الأسرة السعيدة، وليتم رعاية الأولاد في حضن الحنان والعطف والمودة وحسن العشرة في البيت، ثم ينعكس ذلك على المجتمع والأمة، وفوق ذلك يحظى هؤلاء بالفوز العظيم، والرضى والرضوان في جنات النعيم مع أزواجهم وذرياتهم، وليطمئن الناس لهدي السماء، وشرع الله، وفضل الأنبياء والمرسلين.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) زاد المعاد ٢/٤١٤.

(٢) أخرجه ابن خزيمة عن ابن عمر مرفوعاً.

(٣) زاد المعاد ٢/٤١٤.

(٤) أخرجه النسائي ٦/٦٨ كتاب النكاح، وأحمد ٢/٥١، وسنده حسن، زاد المعاد ٤/٢٣١.

خامساً: الهجرة النبوية، دروس وعبر

الحمد لله رب العالمين، الذي خلق الليل والنهار، والشمس والقمر، وينشأ عن ذلك الأيام والتاريخ، وتجري فيها الأحداث التي تُسجل في أعماق النفس الدروس والعبر، ولذلك كان التاريخ مدرسة لأولي الألباب، حتى قيل: إن التاريخ يُعيد نفسه، فكثير من القضايا تتكرر، وتتطابق النتائج أو تتشابه أو تتقارب، ليأخذ العاقل المواعظ والفوائد.

والصلاة والسلام على رسول الله، المبعوث رحمة للعالمين، الذي كانت أحداث سيرته العطرة تملأ النفوس والعقول، وغيّرت مجرى التاريخ، وكانت مبعثاً للتأمل والدراسة للاستفادة منها، والاتعاظ بما ورد فيها، وتقدير المواقف المشهودة التي وردت فيها، ومنها الهجرة النبوية.

وكانت الهجرة النبوية من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة سنة ٦٢٢م أعظم حدث في التاريخ، أو من أعظم الأحداث، ولذلك اختارها الخليفة الراشد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ مناسبة لبدء التاريخ الإسلامي، أو التاريخ الهجري الذي ينطلق من أول الأشهر القمرية «المحرم» ولا يزال سارياً في العالم الإسلامي الذي يحتفل في مطلع كل عام هجري بهذه المناسبة التي تؤرخ لانتهاء عام، واستقبال عام آخر، وما يترتب على ذلك من نتائج بانقضاء سنة من عمر الإنسان، ومن سيرة الحياة، ومن ذكريات الأمة والمجتمع والأفراد، ومن ذاكرة التاريخ وسجلاته، لتقييم الماضي، والاعتبار بأحداثه الطيبة والناجحة والصحيحة والمفيدة لمجاراتها والسير على منوالها، وتكرارها وتجديدها، والإشادة بها، وتجنب أخطائها، وتسجيلها في ذاكرة الأمة والناس، وخاصة الأجيال الصاعدة والناشئة والمتطلعة إلى الأفضل،

وتبحث عن أفضل السبل في منهج الحياة، كما يتم الاعتبار بأحداث العام الفائت المرّة والسوداء، والضارة، والباطلة، لتجنبها، واتخاذ الأسباب لعدم الوقوع فيها، والتخفيف من مسالبها وآثارها ومعالجة الأضرار التي نجمت عنها، فالعاقل من اعتبر بغيره، والتجارب مناط الاختبار والاتعاظ، لتسديد المسيرة، وترشيد الأعمال.

وفي هذا السياق يأتي تنظيم الاحتفال ببدء العام القمري، والحديث عن الهجرة النبوية في المساجد، وقاعات التدريس، والدوائر، والمؤسسات، والوزارات، وأجهزة الإعلام المتنوعة.

◈ تعريف الهجرة وأنواعها:

الهجرة لغة: الخروج من أرض إلى أخرى، وخاصة ترك الوطن والخروج منه إلى غيره، **وفي الاصطلاح**: ترك الإقامة في الوطن إلى بلد آخر للإقامة الدائمة فيه، والمقصود هنا: الانتقال من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، وسبقها الهجرة إلى الحبشة، ولذلك يقال، الهجرتان[1].

والهجرة ثلاثة أنواع، وهي:

١- الهجرة الحقيقية التاريخية، وهي هجرة رسول الله ﷺ وأصحابه من مكة وما يتبعها إلى المدينة المنورة، في سبيل الله، وقد تركوا أوطانهم وأموالهم وأقاربهم وذكرياتهم تحقيقاً لمراد الله تعالى، وتنفيذاً لأمره، وابتغاء مرضاته، وسعياً لتحقيق المقاصد المترتبة على ذلك.

---

(١) القاموس المحيط، مادة هجر ص ٤٤٦، المعجم الوسيط، مادة هجر ٩٧٣/٢، الموسوعة الفقهية الميسرة ١٩٣١/٢.

وهذه الهجرة انتهت بفتح مكة المكرمة سنة ٨هـ التي أصبحت مع الجزيرة العربية موطناً، وموئلاً للإسلام والمسلمين، وقال رسول الله ﷺ «لا هجرة بعد الفتح»[١].

قال النووي رحمه الله تعالى: «قال العلماء: الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام باقية إلى يوم القيامة، وفي تأويل هذا الحديث قولان، أحدهما: لا هجرة بعد الفتح من مكة لأنها صارت دار إسلام، وإنما تكون الهجرة من دار الحرب، وهذا يتضمن معجزة لرسول الله ﷺ بأنها تبقى دار الإسلام، لا يتصور منها الهجرة، والثاني: معناه: لا هجرة بعد الفتح، فضلها كفضلها قبل الفتح، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ﴾» [الحديد: ١٠][٢].

وهذه الهجرة تكررت الإشارة إليها في القرآن الكريم والسنة النبوية، ولها الثواب العظيم، وتجلت فيها فضائل المهاجرين والثناء عليهم بالسبق والأجر، وأكد التاريخ مواقفهم وشمائلهم، وهذه الهجرة هي المقصودة هنا.

٢- هجرة مادية ومجازية، وهي الانتقال من بلد الكفر والاضطهاد للمسلمين إلى موطن الإيمان والإسلام، لإقامة شعائر الله، وتطبيق الأحكام الشرعية، وهذه الهجرة «باقية إلى يوم القيامة» كما نقل النووي سابقاً عن العلماء، وفيها أجر وثواب، ولكن ليس كالهجرة الأولى.

٣- هجرة معنوية، وهي ترك، وهجر ما نهى الله عنه من الحرام والمخالفات والمعاصي والآثام، والتزام الشرع القويم، وهذا ما جاء في تتمة الحديث

---

(١) هذا الحديث رواه البخاري ٢/٦٥١ رقم ١٧٣٧، ومسلم ٩/١٢٣ رقم ١٣٥٣.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ٩/١٢٣.

السابق: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية» وهذا ما ندعو المسلمين جميعاً إليه ليكونوا من المتقين، والمؤمنين الحقيقيين، ليحظوا بالفضل الكبير، والفوز برضا الله تعالى في الدنيا والآخرة.

◈ الدروس والعبر من الهجرة:

إن الهجرة النبوية معروفة في أحداثها ووقائعها، وأسبابها، ونتائجها الباهرة، ولكن الاحتفاء بها والاحتفال بمناسبتها هو من أجل الاستفادة من الدروس والعبر المأخوذة منها، وهذا هو المهم الآن وفي كل وقت.

وإن الدروس والعبر من الهجرة كثيرة وعديدة، ولا يستوعبها احتفال أو خطاب، أو مقال أو بحث، بل يُقال فيها ما لا حصر له، ويُكتب فيها المجلدات، ونقتصر على بعضها بحسب الحال باختصار، ومن ذلك:

١- إن انتهاء العام الهجري، وابتداء سنة جديدة ينبه بقيمة الزمن، واعتبار الوقت، فالوقت هو الحياة، وأن عاماً مضى من عمر الإنسان والأمة والمجتمع، للمراجعة والمحاسبة والاتعاظ، والندم على ما فات من التقصير، والعزم على زيادة الطاعات، والتزام جادة الصواب، والعمل على مرضاة الله تعالى، واكتساب الخيرات، فالوقت إذا فات مات، والوقت رأس مال الإنسان للجد والقربات، والاستعداد للحياة ولما بعد الممات.

٢- كانت الهجرة لإقامة الدولة الإسلامية الفتية، لحماية الدين، والأنفس، والأموال التي كانت مهدرة في مكة، وتُهدر عند غياب الدولة الإسلامية، وهذا يذكرنا كيف كان حال المسلمين قبل الهجرة، وكيف صار حالهم بعد الهجرة بالعزة، والأمن، والأمان، والاستقرار.

وإن دعائم الدولة ثلاثة، وأقامها رسول الله ﷺ بعد الهجرة مباشرة، وهي:

أ – الوثيقة التي كتبها عليه الصلاة والسلام بين المهاجرين والأنصار، وبين المسلمين واليهود والمشركين، لتنظيم علاقة الدولة والمجتمع أولاً، وتنظيم علاقة المسلمين وغيرهم داخلياً وخارجياً، وتسمى الوثيقة الدستورية، أو الدستور ونظام الحكم.

ب– بناء المسجد النبوي الذي أسس على التقوى، ليكون المبعث للنور، وإقامة الحياة الدينية والاجتماعية، وليكون المدرسة والمعهد والجامعة للتربية والتعليم، واللقاء والتعارف.

ج– التآخي بين المهاجرين والأنصار، وتأمين العيش المشترك، والمساهمة فيما بينهم في الأفراح والأحزان، وإزالة الفوارق، وهذا ما نحتاجه اليوم في ديار الإسلام والمسلمين بدون هجرة مادية، أو انتقال من بلد إلى آخر، وهو المطلوب من الأقليات الإسلامية الذين يُضطهدون في دينهم ويُمنعون من شعائرهم، وإلا فالأولى البقاء في ديارهم لحماية أموالهم وأنفسهم ونشر دعوتهم، وهو المطلوب من الجاليات الإسلامية المقيمين في البلاد غير الإسلامية في أنحاء العالم، وصار لهم وزنهم ومكانتهم، وفرضوا وجودهم، ويمارسون معظم شعائرهم، وهذا يسوقنا للهدف الثالث من الهجرة.

٣– الهجرة لإقامة المجتمع الإسلامي الكامل في التآخي، وتطبيق الأحكام الشرعية، وتحقيق العدالة والمساواة بين المسلمين، فالدّين ليس في المسجد فحسب، ولا مجال عندنا لجرثومة الغرب في فصل الدّين عن الدولة والحياة والمجتمع، بل يجب أن يسود الإسلام بعقيدته وشريعته في التطبيق والعمل، وهو ما نسعى إليه، ونحرص على وجوده، وندعو له، حتى تعود الأمور إلى مجاريها، ويحظى المسلمون بظلال القرآن والسنة والعقيدة والشرع.

ونسأل الله تعالى أن يردنا إلى ديننا رداً جميلاً، والحمد لله رب العالمين.

سادساً: ميزات السيرة النبوية وخصائصها

إن اتباع أصول البحث العلمي في معرفة حقيقة السيرة النبوية، وبيان نشأتها، وأهميتها، ومعرفة الأهداف الموضوعية والصحيحة للسيرة النبوية، وتحديد المصادر التي تستقى منها السيرة بشكل صحيح وأمين، كل ذلك يؤدي إلى استخلاص ميزات السيرة النبوية، وعرض خصائصها التي انفردت بها.

ذلك أن عدد الأنبياء والرسل، والقادة والزعماء، والفاتحين والأبطال، والمصلحين والحكماء، والأئمة والعلماء، والفلاسفة والمفكرين، والأدباء والشعراء في التاريخ كبير جداً، ولا يحصيهم العد، ولا يحيط بهم الإنسان، ولكل منهم سيرته الخاصة التي تروى عنه قديما وحديثاً، ولكن سيرة محمد بن عبد الله، رسول الله، المبعوث رحمة للعالمين، المثل الأعلى في الأنبياء، والمثل الكامل للإنسانية، وخاتم المرسلين، تمتاز عن سيرة جميع الأعلام السابقين واللاحقين والمعاصرين بميزات فريدة خاصة، تجعلها في مجال القمة للقدوة والأسوة، وتظهر فيها الأهمية لدراستها والعناية بها[1]، وأبرز هذه المزايا هي:

١- إنها **أصح سيرة** وصلت عن تاريخ الأنبياء والمرسلين والمصلحين والعظماء وبقية الأعلام فقد وصلت إلينا سيرة رسول الله ﷺ بطريق صحيح موثوق مما يسر علينا معرفتها بشكل دقيق ومفصل من غير تشويه أو تحريف، ولم يتيسر لسيرة أخرى أن تجمع مثل هذه الدقة والثقة، لأن اليهود والنصارى مثلاً أدخلوا كثيراً من التشويه والتحريف

---

(١) انظر المزيد من التفصيل والأمثلة في كتاب «الرسالة المحمدية» للأستاذ سليمان الندوي ص ٤٠، السيرة النبوية، دروس وعبر للأستاذ الدكتور مصطفى السباعي ص ١٣، بصائر وعبر من سيرة خير البشر، الدكتور صالح رضا ص ١٨.

على سيرة أنبيائهم ورسلهم، فخلطوا الصحيح بالفاسد، وربما نسبوا إلى أنبيائهم من التهم المزيفة مالايمكن تصور صدوره عن الإنسان العادي، فضلاً عن الأنبياء والمرسلين، كما تنقص كتب التاريخ الأخرى الوثائق الصحيحة، والمصادر الموثوقة، والأدلة المقبولة عن سيرة الأنبياء والعظماء.

أما السيرة النبوية فقد جاء قسط كبير منها في القرآن الكريم، المنقول بالتواتر، الصحيح قطعاً ويقيناً، المحفوظ من التبديل والتحريف كما سبق، وثبت قسم وافر من السيرة النبوية في كتب الصحاح، والأحاديث الثابتة في كتب السنة، ومابقي من أخبار السيرة التي لم ترو بالطريق الذي نقل فيه الحديث الشريف فإنها خضعت لمنهج نقدي خاص، ودونها -في معظم الأحيان- محدثون ثقات كابن اسحاق وابن هشام وابن سعد وابن جرير الطبري وابن كثير، ولو قورنت كتبهم مع الأخبار التاريخية، وأحداث التاريخ وسير الأنبياء لوجدنا التفوق الواضح في صحتها وسلامتها، ودقة رواتها، وسلامة أخبارها.

٢- إن حياة رسول الله ﷺ المسطورة في كتب السيرة النبوية **واضحة كل الوضوح** في جميع مراحلها، منذ ولادته وحتى وفاته، ولحاقه بالرفيق الأعلى، ونقل لنا الصحابة رضوان الله عليهم جميع صفاته، وأحواله، وأخلاقه، ومعاملاته، وتصرفاته في جميع مجالات الحياة، وكل ماصدر عنه من قول أو فعل أو تقرير في جميع المراحل، وخاصة بعد البعثة النبوية والهجرة إلى المدينة المنورة، وصوروا لنا صفاته الخلقية حتى وصلت بهم الدقة والأمانة والمحبة في وصف أعضائه، وذكر عدد الشعرات البيض في لحيته الشريفة، وحركاته وإشاراته، لذلك قال أحد النقاد الغربيين: «إن محمداً -عليه الصلاة والسلام هو الوحيد الذي ولد على ضوء الشمس».

ونقلت لنا أزواج النبي ﷺ، ورضي عنهن، جميع أحواله الخاصة في بيته، وحياته الزوجية، وعباداته الليلية، وطعامه وشرابه، وبينوا الأحكام الشرعية في هذا الخصوص، لتغطية هذا الجانب الذي يصل إلى نصف وقت الإنسان يومياً في بيته وشؤونه الخاصة، وهذا الأمر كان إحدى الحِكم الشرعية لتعدد زوجات النبي ﷺ، وليس مايدعيه الحاقدون والمستشرقون بدون دليل علمي صحيح.

بينما لا نكاد نعرف إلا الشيء القليل عن حياة بقية الأنبياء والمرسلين، والعظماء والأعلام، وخاصة في مراحل طفولتهم، أو في مجال حياتهم الخاصة التي يلفها الظلام العاتم، وتتخلل سيرتهم حلقات مفرغة، وأطوار تاريخية مجهولة أو سوداء لا يملؤها إلا الهراء أو الخرافات والأوهام.

٣- إن السيرة النبوية تحكي **سيرة إنسان أكرمه الله بالرسالة والوحي**، ولم يخرج عن كونه إنساناً من البشر، ولم يلحق به شيء من صفات الألوهية، أو الصفات الخارقة للعادة، أو الخارجة عن مستوى حدود الإنسان الفطرية، وقد ورد التأكيد على هذا المعنى بنص القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]، وتأكد ذلك في آيات كثيرة، وأحاديث عديدة، منها قوله ﷺ: «إنكم تختصمون إلي، **وإنما أنا بشر**، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له بنحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من نار»[1]، ولا يعلم من الغيب إلا

---

(١) هذا الحديث أخرجه البخاري ٢٦٦٢/٦ رقم ٦٧٤٨، ومسلم ٤/١٢ رقم ١٧١٤، وأبو داود ٣٧٠/٢، والترمذي ٥٦٨/٤، والنسائي ٢٠٥/٨، وابن ماجه ٧٧٧/٢، ومالك في الموطأ ص٤٤٨، والشافعي في بدائع المنن ٢٣٣/٢، وأحمد ٢٠٣/٦، ٢٩٠، ٣٨٠، والبيهقي ١٤٤/١٠.

ما يطلعه الله عليه.

بينما نجد في بقية الأديان من غالوا في أنبيائهم حتى جعلوهم في مقام الألوهية، كما فعل النصارى في عيسى عليه السلام، أو البوذيون في بوذا، أو اليهود عندما قالوا «عزير ابن الله» كما نجد مثل هذا التعظيم والمبالغة في الأوصاف عند بعض الحكام والقادة المعاصرين.

ومثل هذا يبعد النبي عن كونه قدوة نموذجية لأتباعه، طالما أنه يتصف بشيء من صفات الألوهية مما لايمكن للإنسان تقليدها أو الوصول إليها، وهنا أيضاً -على حد آرائهم الضالة- يبعد النبي عن واقع قومه وبني جنسه.

وفي مقابل هذا نجد في الكتب الدينية مجموعة من الافتراءات والقصص والأكاذيب في الحب والقوة، والفساد والإجرام، والحقد والحسد، والتآمر والمكر وغيرها مما ألصقه اليهود في أنبياء بني إسرائيل في التوراة والتلمود، مما لايصح أن يصدر عن الإنسان العادي، فكيف بالأنبياء والمصلحين والرسل المقتدى بهم؟

وأما سيرة رسول الله ﷺ فقد برئت من هذا الانحراف، وتطهرت من هذا الإفتراء، وسلمت من هذا الإفراط والتفريط، ليبقى رسول الله ﷺ القدوة المثلى لكل المسلمين، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ومع الأدب الإسلامي لمقام رسول الله ﷺ، واحترام نبوته، وتقدير جهوده وجهاده، ومعرفة حقه عليهم، وأنه المبعوث رحمة للعالمين، وأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، ليزدادوا له حباً، ولسيرته شوقاً، ولاتباعه والاقتداء به أملاً ومثلاً، وللقرب من حياته سعياً، وللدعاء برفقته يوم الدين حرصاً[1].

---

(١) انظر كتاب: محمد السوبرمان الأول العالمي، للأستاذ شكيب أرسلان، وكتاب المائة الأوائل، مايكل هارت ص ١٩.

٤- إن دراسة السيرة النبوية بتجرد وموضوعية، ودقة وتمحيص، وتأمل وتدبر تعطي **الدليل الجازم على صدق نبوته**، وعظمة رسالته، وخلود شريعته، لما عرف عنه من استقامة وصدق وأمانة منذ طفولته، ونشأته، فهي سيرة إنسان كامل، عرف قبل البعثة بالصدق، والأمانة، والأمية «ما عهدنا عليه الكذب» كما قال أبو سفيان قبل إسلامه لهرقل، وكان يعرف بالأمين في قومه... وأقام رسول الله ﷺ هذه الصفات حجة على قومه عندما أخبرهم بنبوته وبعثته، وأنه رسول الله إليهم، وبدأ الدعوة، ولقي في سبيلها المصاعب، وآذاه قومه فصبر، وضايقوه فاستعان بالله وسعى في سبيل ذلك، وضرب في الأرض، ثم هاجر وأقام المجتمع الإسلامي، والدولة الإسلامية، فحاربه أعداؤه، وأخذ الاستعداد الكامل للحرب، وانتصر عليهم في معاركه ومغازيه، بعد الصبر على الأذى، وتحمل المكاره، وتعريض حياته للخطر مدة ثلاث عشرة سنة قضاها في الدعوة بمكة، وثابر على التبليغ، وأرسل الكتب والرسل واستعمل الحكمة والموعظة الحسنة في السلم والحرب، وحقق الانتصارات المتلاحقة، وانتشرت الدعوة في أنحاء الجزيرة في مدة قصيرة، وآخى بين الأفراد والقبائل، وجمع بين الناس، وألف بينهم، مما يدل على تأييد الله تعالى له، وأنه نبي ورسول من الله تعالى لقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

ولم يكن اعتماد الرسول ﷺ في الدعوة والتبليغ ونشر الإسلام ودخول

الناس مبنياً على المعجزات كما كان الحال مع بقية الأنبياء[1]، وكانت معجزته الكبرى التي أيده الله تعالى بها للدلالة على صدقه هي القرآن الكريم، المعجزة الخالدة الأبدية بفصاحته وبلاغته ونظمه وأسلوبه، وبما يتضمن من أخبار ومغيبات، وتشريع وأحكام، وتربية وتنظيم، ومافيه من أدلة لاتقاوم، ولا تحدد بوقت، بينما كان يعتمد على التخطيط والتدبير والاستعداد والاحتياط وممارسة العمل بنفسه ومع أصحابه.

وإن كثيراً من أخبار السيرة تؤكد صدق نبوته ورسالته، مثل عفوه عن وحشي قاتل حمزة، ومعاملته لهند بنت عتبة، وعكرمة بن أبي جهل، وكعب ابن زهير وغيرهم ممن عادوا الإسلام، وآذوا رسول الله ﷺ، وتآمروا على قتله واغتياله، فحماه الله تعالى منهم، ثم عفا عنهم، ومعاملته لأهل مكة بعد الفتح، وانتصاره في بدر وأحد والأحزاب وخيبر مع تآمر اليهود والمنافقين والمشركين على قتله وإبادة أصحابه، ومحو رسالته.

٥- إن سيرة رسول الله ﷺ **شاملة لكل نواحي الحياة الإنسانية** في الإنسان، ليكون المثل الأعلى، والقدوة الحسنة في جميع النواحي والمجالات.

---

(١) انظر كتاب بصائر، للشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني ص ٣١٤، وقد أسلم كثيرون بعد قراءة السيرة النبوية في أوروبا وأمريكا، منهم أخيراً المنصر الدانماركي «كريستي» الذي قرأ السيرة ليستغلها في الإساءة للإسلام والدعوة التنصيرية ويلعب بها، لكنه أعجب بها وتوسع في قراءتها، فاعتقد الحق، وأعلن إسلامه، وانظر ماقاله مونتجمري وات في كتابه «محمد في مكة» ص ٥٢، وماقاله لامارتين في كتابه «تاريخ تركيا ٢/٢٧٦» وماقاله إدوار جيبون وسيمون أوكلي في كتابهما «تاريخ أمبراطورية الشرق ص٥٤» وماقاله راما كريشنا، ومهاتما غاندي، وغيرهم كثير.

● فهو **القائد المنتصر**، والمحارب الشجاع، والسياسي الناجح، والمعاهد الصادق، يستعمل مع أصحابه الشدة والحزم والترهيب عندما يتطلب الأمر ذلك، ويحسن إليهم ويرفق بهم عندما يقتضي الحال هذا، حتى ليطلب من أحد الصحابة أن يقتص من شخصه عليه الصلاة والسلام، وكان يحسن معاملة الأصحاب والأصدقاء، كما يحسن معاملة الخصوم والأعداء.

● وهو ﷺ **الرجل المثالي في بيته**، وفي معاملته لزوجاته وأهله وأقاربه وأولاده وأحفاده، وهو في هذا قدوة للمسلمين، وينصح الأمة، ويرشدهم إليه، ويقول: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»[1].

● والرسول عليه الصلاة والسلام هو **الصورة الصحيحة لرجل العقيدة**، والداعية المخلص إلى الله تعالى في صبره وتضحيته، وفي سلوكه وأخلاقه، وهو المربي الرشيد، والموجه الحكيم، والقدوة المثالية لكل مسلم عامة، وللدعاة إلى الله تعالى خاصة، وهو المعلم المثالي.

● وبإيجاز فهو **المثل الأعلى** بكونه الشاب المستقيم، ورئيس الدولة الفريد من نوعه، والزوج الحنون، والأب العطوف، والصديق الوفي، والجار المثالي، والأخ المحب... إلى غير ذلك مما لا مجال للتوسع فيه، فهو معدن الفضائل كلها[2]، أما الأنبياء والرسل الآخرون فليس لديهم كل هذه

---

(١) هذا الحديث أخرجه الترمذي عن عائشة رضي الله عنها ص٦٠١ رقم ٣٨٩٥ ط بيت الأفكار الدولية، وأخرجه ابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما ص ٢١٤ رقم ١٩٧٧ ط/ بيت الأفكار الدولية.

(٢) انظر: أهداف التربية الإسلامية، للدكتور ماجد عرسان الكيلاني ص ٩٥ فصل «تربية الفرد على تعشق المثل الأعلى»، أصول تدريس التربية الإسلامية، للباحث ص ٤١٤.

الجوانب، وأما عظماء العصر فتقترن عظمتهم مع المخازي الأخلاقية والاجتماعية والفضائح المالية والجنسية وغيرها.

ومن هنا نخلص من بيان ميزات السيرة النبوية وخصائصها إلى النتائج التالية:

١- السيرة النبوية صورة مثالية للحياة الإنسانية في جميع جوانبها بالأدلة والبراهين.

٢- السيرة النبوية ترجمة عملية للقرآن الكريم، وتطبيق فعلي لأحكام الإسلام والشريعة والأخلاق.

٣- السيرة النبوية عون ووسيلة لفهم كتاب الله تعالى ومعرفة أحكامه.

٤- تعطي السيرة النبوية الفرصة للاطلاع على أحداث التاريخ الكبرى التي غيرت معالم الجزيرة العربية، ثم حولت سير خط البشرية.

٥- السيرة النبوية وسيلة لجمع الأمة العربية والإسلامية في الآمال والآلام، سواء للمسلم أم لغيره، فالرسول قائد عام للأمة.

٦- وجوب معرفة فقه السيرة لأخذ العبر منها، والعظات والأحكام، والمبادئ.

٧- معرفة السيرة النبوية تزيد المحبة لرسول الله ﷺ، ومن ثم حسن الاتباع له، والاقتداء به، للفوز بلقائه والاجتماع تحت لوائه يوم القيامة إن شاء الله تعالى.

سابعاً: نفحات إيمانية في محبة رسول الله

في تقديم كتاب «من كنوز النبوة»

الحمد لله حق حمده، لما أنعم به علينا من نعم وأفضال، ومنها بعثة محمد ﷺ، وأنه الرسول الكامل المكمّل، الذي ختم به النبوات والرسالات، وجعله أفضل الأنبياء والرسل، وأفضل الخلق أجمع.

والصلاة والسلام على رسول الله، حبيب الله تعالى، والحبيب الأول في قلوب المؤمنين، والشفيع المشفّع لدى رب العالمين، يوم يبعث الناس ليوم الدين.

ورضي الله عن الصحابة أجمعين الذين تربوا على يدي رسول الله ﷺ، ثم صاروا كالنجوم، فنشروا الإسلام في البلاد، وأضاءوا المعمورة بهدي خير العباد، وكانوا إحدى معجزاته في التربية والإعداد، وحققوا آماله فيهم في الخيرية والرشاد.

ورضي الله عن التابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين، وبعد:

فإن **محبة رسول الله** ﷺ شعار المؤمنين، وعقيدة الصالحين، ونشوة المحبين، وزاد السالكين، وحقيقة صادقة لدى المسلمين، لأن فيه هذه المعاني الآتية: **محمد رسول الله...، إنها النبوة.... ذلك رسول الله....**

ولما وسوس الشيطان لبعض أعوانه الأوروبيين في الدانمارك وغيرها في الإساءة إلى رسول الله ﷺ بالصور الكرتونية، كانت صرخة المسلمين في العالم: **إلا رسول الله**، وكانت ردة الفعل مدوّية من النواحي العاطفية، والعقلية، والدينية، والعقدية.

ذلك أن **محبة رسول الله** في القلب والعقل، وفي العواطف والسلوك، وفي الأحلام واليقظة، وعند التدّين الكامل، أو حتى لمجرد الإنتماء للإيمان

والإسلام، إنها محبة قلبية، وعقلية، وعاطفية، ووجدانية، وسلوكية وعملية.

إنها **المحبة المنطلقة** من قول الحق تبارك وتعالى الذي ربط محبته باتباع رسوله ﷺ، فقال: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، وهل يوجد اتباع صحيح وصادق لرسول الله إلا بعد محبته ومعرفة سنته، وسيرته، وفضائله، وخصائصه، وشمائله، وأخلاقه، وعطفه، ورحمته؟ كما وصفه ربه سبحانه بقوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

إنها **المحبة الملبّية** لحديث رسول الله ﷺ القائل: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»[(١)]، ومحبة الوالد والولد فطرية، ومحبة رسول الله إيمانية.

وإنها **المحبة الباعثة لحلاوة الإيمان** لقوله ﷺ: «ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواه، وأن يحبّ المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»[(٢)]، قال النووي رحمه الله تعالى: «هذا حديث عظيم، أصل من أصول الإسلام، ومعنى حلاوة الإيمان: استلذاذ الطاعات، وتحمل المشقات في رضى الله عز وجل ورسوله، وإيثار ذلك على محبة عرض الدنيا، ومحبة العبد ربه سبحانه وتعالى بفعل طاعته وترك مخالفته رسول الله ﷺ» وهذا هو الهدف من المحبة المتمثل بالالتزام والطاعة والتحرز من المخالفة.

---

(١) رواه البخاري رقم ١٤.

(٢) رواه البخاري رقم ١٦ ومسلم رقم ٤٣.

إنها **المحبة المطلقة** لرسول الله ﷺ، لأنه المعصوم عن الخطأ، وهو المقتدى به الذي جعله الله تعالى أسوة للمؤمنين، فقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وإنها المحبة المطلقة التي بلغت النهاية، ولا شيء يسمو عليها ويعلو إلا محبة الله تعالى ذي الفضل الكامل، والإنعام الواسع، والمتفضل على الكون والحياة والإنسان.

إنها **المحبة الدائمة** في الليل والنهار، وفي جميع الأوقات، وفي كل الأماكن التي يذكر فيها محمد رسول الله تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، وأن الله رفع اسمه، وأعلى ذكره وشأنه، كلما ذُكر الله تعالى في الأذان والإقامة على مدار الساعات والدقائق.

إنها **المحبة الشاملة** في جميع مناحي الحياة، وفي جميع المجالس، وفي جميع المناسبات، لأن سنته المطهرة، وسيرته العطرة، تغطي جميع المجالات، وفي مختلف الأحوال الخاصة والعامة.

إنها **المحبة المفروضة فرضاً** مع محبة الله تعالى، فإن نقصت تعرض صاحبها للتهديد والخطر، مهما كان البديل من الآباء والأبناء، والإخوان والأزواج، والعشيرة والأموال، والتجارة والمساكن، وهو ماجاء صريحاً في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

إنها المحبة التي لا تأتي من فراغ، بل هي **مكافأة وثمن وعوض** عما قدمّه رسول الله ﷺ من هداية ورشاد، وأنه الرحمة المهداة، وأنه رحمة للعالمين، وأنه أضاء الوجود برسالته ونوره، وتضحيته وجهاده، وحرصه على إنقاذ الأمة من الضلال والردى، والجاهلية والجهل، والظلم والظلام، وعما يقدمه رسول الله ﷺ من حياة للقلوب، وسعادة للأرواح، وأن الصلاة عليه تمنح صاحبها الرضى والرحمة والغفران من الله تعالى، ففي الحديث الصحيح «من صلى عليّ صلاة صلىّ الله عليه بها عشراً»[1]، وفي الحديث الحسن: «أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة»[2]، وأولى: أي أقرب وأحرى، وكذا فإن جزاء هذه المحبة عما سيقدمه رسول الله ﷺ في قادمات الأيام يوم العرض والحشر والحساب من شفاعته لأمته، فيناجي رب العزة: أمتي أمتي، ويجأر العباد إلى الأنبياء للشفاعة، فيعتذر كل منهم بعذر، حتى يلجؤوا إلى رسول الله ﷺ، فيلبي: أنا لها، أنا لها، ويشفع لهم عند الله تعالى.

وإن محبة رسول الله الحقيقية تتوقف على **معرفة المحبوب**، وصفاته وشمائله، وميزاته وخصائصه، لتكون محبة صادقة، ونابعة من القلب، لتؤتي ثمارها في الاتباع والطاعة، والتأسي والالتزام، بل والتضحية والفداء، وهذا يوجب تتبّع السنة المطهرة، والسيرة النبوية، حتى لا تكون المحبة ناشئة عن فراغ، أو لمجرد التقليد والمحاكاة ، مما قد يدفع إلى الإنكار، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩].

وإن **محبة رسول الله** ﷺ تبعث في القلب الراحة، والسعادة، والطمأنينة،

---

(١) مسلم رقم ٤٠٨.

(٢) الترمذي رقم ٤٨٤.

والأنس لقرب الله تعالى وقرب رسوله ﷺ، وتمدّ الإنسان بالطاقة الروحية، والشوق الخالص للاتباع واللقاء تحت لواء رسول الله ﷺ يوم القيامة، والشرب من حوضه الشريف، والارتشاف من يده الطاهرة.

وإن **محبة رسول الله** ﷺ دليل على كمال الإيمان، وحسن الإسلام، وصدق الاتباع، وعنوان الشوق، لأنها تغذي الأرواح، والقلوب، وبها تقرُّ العيون، وتفيد عند الشدائد والكربات، فكلما حلّ بالإنسان ماينغصه ويؤلمه، صلى على رسول الله لتفريج الكرب والهم والحزن، فتعود النفس إلى الغبطة والسرور والانشراح.

وإن **محبة رسول الله** ﷺ توجب السعي إلى إحياء سنته، والحفاظ على دعوته، والتمسك بمنهجه، والحرص على آدابه وتوجيهاته.

وإن **محبة رسول الله** ﷺ تستوجب حبّ من أحبّه، لأنه لا يحب إلا المؤمن الصادق، والتقي الخالص، والمسلم العامل، وهي تستوجب حبّ ما أحبّه، لأنه لا يحب إلا الشهد الصافي، والخير المطلق، والعمل النافع، والفعل المفيد.

وإن **محبة رسول الله** ﷺ تؤدي إلى مرافقته في الجنة والفردوس الأعلى، لحديث الأعرابي قال: يا محمد، الرجل يحبّ القوم ولما يلحق بهم، فقال رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحبّ»[1].

وإن **محبة رسول الله** لا يسعها اللسان، ويعجز عنها البيان، ويجف عندها القلم والمداد، ولا تحيط بها الكتب والصفحات، ويلخصها قول الحق تبارك

---

(١) رواه الترمذي وقال حسن صحيح رقم ٢٣٨٧، ورواه بلفظ آخر البخاري رقم ٥٨١٦، ومسلم رقم ٢٦٤٠.

وتعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

هذه لمحات ونفحات، ومعالم، ومشاعر في **محبة رسول الله** ﷺ جاش بها الفؤاد، وتحتاج إلى المزيد من طول النفس، وسيولة البيان، ومع ذلك تبقى حبيسة مع الروح، حتى تحظى بلقاء المحبوب يوم الدّين، في جنات النعيم، مع الأنبياء والصديقين والشهداء، وحسن أولئك رفيقاً، وأختم ذلك متمثلاً بأبيات من حكمة الشافعي رحمه الله:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ... هذا محال في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

وبعد: فإن هذه المشاعر والأحاسيس، وكتابة هذه الحقائق والعواطف، جاشت في نفسي حين طلب مني الأخ **عامر محمد عثمان** أن أكتب له مقدمة لكتابه، وليست بيننا معرفة سابقة، إلا أن العلم رحم بين أهله، وسألته عن عنوان كتابه فقال: «**من كنوز النبوة**» فلبيت الرغبة، واستجبت للطلب حباً برسول الله ﷺ، فإن كل مادرسناه، ويدرسه العلماء هو شيء من كنوز النبوة التي لا تنضب، وهي كنوز لا تقدر بثمن، وهي جانب من نور المصطفى ﷺ، لأنها تملأ الكون، وتجني الثمار اليانعة في مختلف جوانب الحياة، ولذلك جاءت مفردات الكتاب وعناوينه الرئيسة والفرعية، من فيوضات النبوة في العقيدة والإيمان، والأخلاق والسلوك، والآداب والأحكام، مما وردت فيه الأحاديث الكثيرة، والسنة الشريفة، لتكون نوراً وضياءً للقارىء، فيهتدي بها من ظلمات الحياة، ودياجير الاتهامات والدعايات المسيئة لمقام النبوة، ليحقّ الله الحقّ، ويُبطل الباطل، وليقوم الدعاة والعلماء والخطباء والكتّاب بكشف

الحقائق، ووضع النقاط على الحروف، وإضاءة الشموع على الطرقات، ليهتدي بها الناس، ويزداد الذين آمنوا إيماناً وثباتاً ويقيناً، وحباً لمقام النبوة، وشوقاً للمزيد من معرفة سيرته وكنوزه.

واطلعت على كتاب «**من كنوز النبوة**» عند الإخراج الأوليّ له، ورأيته يحتاج إلى إعادة ترتيب، ووضعه في فصول متتالية، لتأخذ بيد القارىء إلى تحقيق المقصود، وتساعده على الإفادة والربط بين الموضوعات المتقاربة والمتشابهة، مع الالتزام بمنهج واحد في تخريجه الأحاديث وعزوها لكتب السنة المطهرة.

وإن ما قدّمه **الأخ عامر** يمثل جزاً من كنوز النبوة التي صدعت بها نفسه، وخطّه يراعه، ليساهم في نشر الدعوة، ويقدمه للناس ليعمّ به الانتفاع، فجزاه الله خير الجزاء، وبارك الله في عمله، ونفع بعلمه، وأعانه على زيادة الإنتاج والعطاء، والله من وارء القصد، والحمد لله رب العالمين.

ثامناً: الشؤون المالية في السيرة النبوية

الحمد لله رب العالمين، الذي هدانا للإيمان، وأكمل لنا الدين والإسلام، والصلاة والسلام على رسول الله، الرحمة المهداة، الذي أرسله الله تعالى رحمة للعالمين، وأسوة للناس أجمعين، فأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، ثم لحق بالرفيق الأعلى راضياً مرضياً، وقد ترك الأمة على محجَّة بيضاء: ليلها كنهارها، لايزيغ عنها إلا هالك، ورضي الله عن الآل والأصحاب، وبعد:

فإن من يسمع معظم التوجيه الديني، والوعظ والإرشاد، والدروس والخطب، وما يشيع في ردهات بعض العلماء، وبين بعض الدعاة والوعاظ، يجد حصر السيرة النبوية في جانب الفقر والحاجة، والضيق والعسر في حياة رسول الله ﷺ، ويقرن ذلك بالزهد والتقلل من الدنيا، والإعراض عن متاعها، وتجنب المال ما أمكن، ومنع الادخار، وكأن الأموال من زينة الحياة الدنيا التي يُفضل تركها، وعدم التعلق بها، وقد يزيد بعضهم ما يُفهم خطأً عن التوكل على الله تعالى، وأن الرزق مقدر، ويجب التسليم للقضاء والقدر، وذكر أكثر المؤلفين والوعاظ والدعاة جانباً من السيرة النبوية في الشؤون المالية، وأغفلوا الجانب الآخر في الملك والغنى والسعة والعطاء والكرم، مع أن الجميع ثابت ومدون في كتب السُّنة والسيرة والتراجم وحياة الصحابة وغيرها، ويندر وجود بحث -وخاصة اليوم- عن الجانب المالي، والشؤون المالية الخاصة برسول الله ﷺ في التملك والكسب والإنفاق والصدقة والوقف.

وكثيراً ما يقع القارئ والسامع في التناقض في أمور كثيرة، فالنبي ﷺ فقير، ثمّ هو يستعيذ من الفقر الذي يكاد أن يكون كفراً، والرسول ﷺ يدعو

أن يكون مسكيناً بما يُرادف الفقر، مع أن الفقر والمسكنة من أول أسباب استحقاق الزكاة التي حُرّمت عليه وعلى أهل بيته، وهو يقرر أن اليد العليا خير من اليد السفلى، وثبت أنه كان أجود بالخير من الريح المرسلة، وأن الآيات الكريمة وصفت الأنبياء والرسل بالاصطفاء والكفاية وعدم السؤال أو أخذ الأجر على القيام بالدعوة، كما يتكرر طلب الابتعاد عن زينة الحياة الدنيا، مع وجود الآيات الكثيرة التي تأمر بالأخذ بها، وأن الله تعالى سخّرها لعباده جميعاً في الدنيا، وجعلها خالصة للمؤمنين في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المائدة: ٨٧].

ويقولون: إن النبي ﷺ كان عالة على مال خديجة، مع أنه يوجب على الزوج النفقة، وأن القوامة للرجل، لأن أحد أسبابها الإنفاق؟ ويكررون أن النبي ﷺ كان يربط على بطنه الحجر من الجوع، ولم يشبع يومين من الخبز،ويخرج من بيته هائماً من الجوع، فأين أمواله، وكسبه، وتجارته، وما كان يستحقه من الأنفال والفيء والغنائم؟ وإذا كانت خديجة رضي الله عنها بهذا الغنى والثراء والترف، فأين ذهبت أموالها في حياتها وبعد وفاتها؟

هذه الإشكاليات والتناقضات توجب البحث عن كشف الحقيقة، وإزالة اللبس، والتوفيق بين الأقوال، وتعيين المراد من الأخبار، وبيان الظروف الخاصة بكل حالة، وشرح حقيقة الدين والإسلام والشريعة، وهو ما نلخصه فيما يلي:

١- إن الإسلام عقيدة وعبادة، وسلوك وشريعة، وهي مترابطة مع بعضها، ويكمل بعضها الآخر، ولا تقبل التبعيض في التطبيق، ولا التجزئة في

السلوك، وإلا أصابها العوار، والخلل، والتشويه، وسوء المخبر والمنظر، واعتراها الاضطراب والشك، بل وسوء النتائج، وهو ما نشاهد بعضه اليوم في العالم الإسلامي، وفي حياة معظم المسلمين.

٢- إن شريعة الله كاملة، وشاملة لجميع شؤون الحياة، ولكل ما يقع فيها، وما يدور في فلكها، فلكل حركة حكم شرعي، وخاصة تصرفات الإنسان التي يحكمها شرع الله تعالى في كل كبيرة وصغيرة، ليبقى المؤمن تحت ظلال الشرع الحنيف، وضمن حدوده، وتحت خيمته، ليسعد في الدنيا، ويقدم الخير للفوز في الآخرة.

٣- إن المال شقيق الروح، وعصب الحياة، وشاغل الناس، ويسعون في الليل والنهار لكسبه وإنفاقه، ويعملون في الدنيا لنيله والتمتع به، والانتفاع بخيره وثرواته، وكان العامل الرئيس للحروب في القديم والحديث، وهو المحور الاقتصادي الأول الذي تقوم عليه الدول في العصر الحاضر، وتُقسّم على أساسه التكتلات الدولية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، وصنفت الطبقات بناء على تقديره.

٤- إن المال في الإسلام أحد مقاصد الشريعة، وأحد الضروريات الخمس التي جاء الشرع لإيجادها وتأمينها، ولحفظها ورعايتها وتنظيمها، ولصيانتها ومنع الاعتداء عليها أو التعرض لها، وفرض العقوبات عند الإخلال بها، وهي حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ النسل أو العرض أو النسب، وحفظ المال، وقال رسول الله ﷺ: «ومن قتل دون ماله فهو شهيد»[1].

---

(١) هذا جزء من حديث شريف رواه أبو داود ٢/٥٤٦، والترمذي وصححه ٤/٦٧٨، والنسائي ٧/ ١٠٧، وابن ماجه ٢/٨١٦، وأحمد ٢/٢٣١.

٥- جاءت الأحكام الشرعية في المال كثيرة وعديدة، ومتنوعة ومتفاوتة، لتلبي حاجات البشرية، وتغطي جميع ما يتطلبه التعامل في المعاملات المالية، وأصلها في القرآن الكريم: مجملة أحياناً، ومفصلة أحياناً، وبيّنتها السنة النبوية، وبقي باب الاجتهاد مفتوحاً أمامها حسب التطورات والمستجدات والوقائع الطارئة وما تخبئه قادمات الأيام إلى قيام الساعة، وظهر اصطلاح «الأموال» واصطلاح «المعاملات المالية» قديماً، وعرف اليوم بعنوان «الاقتصاد» الذي ينظم الشؤون المالية للفرد، والأسرة، والجماعة، والمؤسسات، والشركات، وميزانية الدول وسياستها المالية، واتفاقيات الدول، والمعاهدات العالمية.

٦- انفردت الدولة الإسلامية منذ تأسيسها باصطلاح «بيت المال» الذي يضم خزينة الدولة في وارداتها، وسبل كسبها، وينظم نفقاتها، ومنهج الصرف منها، واستمر ذلك طوال التاريخ الإسلامي.

وكان رسول الله ﷺ أول من أرسى قواعده وبنيانه، وشيّد أركانه، ثم جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه فنظّمه خير تنظيم وطوّره، وسارت عليه الدولة الإسلامية حتى نهاية الخلافة،مع الاختلاف والتفاوت النسبي في التطبيق حسب الأزمان والأماكن، وحسب الالتزام الدقيق بالأحكام الشرعية، أو الميل والانحراف عن بعضها.

٧- كان رسول الله من قريش، وهي أفضل القبائل العربية، وأعلاها يداً وشأناً، وأغناها مالاً، وولد عليه الصلاة والسلام في مكة المكرمة التي اشتهرت بالتجارة، وعرفت رحلتي الشتاء والصيف، وتحمل لها خيرات الدنيا، ونشأ عليه الصلاة والسلام وتربى كسائر الناس، كما قال تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]، وتحمّل أعباء الحياة بحلوها ومرها، وتزوج، وأنجب، وأقام أسرة، ورعاها، ثم أصبح نبياً ورسولاً، ثم صار رئيس دولة في المدينة المنورة، وأحبه المسلمون، ثم تبعه الملايين في العالم، والتزموا هديه الشريف وسيرته العطرة، وجعلوه نبراساً، وأسوة، وقدوة، ومثلاً أعلى.

٨- إن الصورة الجزئية عن السيرة النبوية وحياة الرسول ﷺ استغلها بعض المستشرقين وأتباعهم من ضعاف الإيمان والعلم لتشويه السيرة، وتوجيه الافتراءات الباطلة حولها، ونشر الأكاذيب عن بعض جوانبها، للطعن في الإسلام، وإثارة الخلل في أحكامه الشرعية،وإبعاده عن كونه صالحاً للعمل به، ومنع الاقتداء بالسيرة النبوية، والعمل بهديها، وسار بعض الناس في هذا الفلك عن حسن نية، أو قلة علم(١).

٩- لقد أغفل الكثيرون الجانب الآخر من سيرة رسول الله ﷺ فيما ورثه(٢)،

---

(١) قال الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى: «إن أعداداً كبيرة من المسلمين زعموا أن صاحب الرسالة آثرالفقر على الغنى، ودعا إلى قلة ذات اليد، وبهذه الفلسفة الجبانة نشروا الفقر في الأمة الإسلامية عدة قرون» الطريق من هنا ١/٤٦، ومن ذلك ما عرضه حجة الإسلام الغزالي (٥٠٥هـ) في كتابه «إحياء علوم الدين» في بيانه لخصائص الفقر، ومناقب الفقراء، وكذا ما ورد في بعض كتب الحديث الشريف عن ذلك، كالترغيب والترهيب للمنذري (٦٥٦هـ)، وفي كتب السنن والمسانيد عن فضل الفقر، وورد مثله في بعض كتب السيرة، وكتيبات الدعوة.

(٢) بين الماوردي رحمه الله تعالى (٤٥٠ هـ) في كتابه الأحكام السلطانية ص ٢٩٥، والقاضي أبو يعلى الفراء الحنبلي رحمه الله تعالى (٤٥٨هـ) في كتابه الأحكام السلطانية ص٢٠٢، شيئاً من ذلك، فنقلا عن الواقدي في السيرة النبوية قال:=

وفي الملك والغنى، والسعة والعطاء، والكرم والجود، والبذل والإنفاق، وأسدلوا الستار عن موارد النبي ﷺ، وكسبه للرزق والأموال في صباه ومراهقته وشبابه، ثم تجارته، ثم موارده الخاصة بعد الهجرة والجهاد، وأغفلوا إنفاقه وعطاءه، وغناه ويسره، وصدقاته التي وقفها في حياته، وأوصى بنظارتها بعد موته، وأنه كان أجود بالخير من الريح المرسلة، وأنه أنفق على نفسه من كسب جبينه، ولم يعتمد على غيره، وتكفل بمؤنة زواجه، ونفقات زوجاته وأولاده، وعلى ما يحتاجه في شؤون حياته، وعلى هجرته، وعلى مواليه وخدمه، وعلى المسلمين، بل حتى على المنافقين وغير المسلمين،مما يدل على ثرائه وسعة ذات يده، وقام بواجب إطعام الضيوف والوفود، وعلى مبيتهم وجوائزهم، وهداياهم، وعلى المؤلفة قلوبهم، والإثابة على الهدايا التي تقدم إليه من أصحابه وأعدائه والملوك والرؤساء الذين تواصلوا معه، فالعاقل يجود مما في يده ومن ملكه، ولا يكون كلاً ولا عالة على غيره، وخاصة من كان في مكانة رسول الله ومنزلته، ولم يذكر أحد من المؤرخين أن النبي ﷺ كان ينفق من مال غيره.

=«وورث من زوجته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها دارها بمكة بين الصفا والمروة خلف سوق العطارين، وأموالاً» كما نقلا «أنه ﷺ ورث عن أبيه أموالاً، وورث عن أمه آمنة بنت وهب الزهرية دارها التي ولد فيها»، ولذلك دفع إلى مرضعته أجرة رضاعه من أمواله التي ورثها من أبيه، واستمرت كذلك في حضانته بضع سنين، ولما كبر وكان ميسوراً غنياً طلب من عمه أبي طالب الذي ضاقت به الحال لكثرة عياله، ورداً لجميله السابق، أن يرعى ولده علياً رضي الله عنه، فرعاه في بيته، وعاش في كنفه وربّاه، وهذا معروف ومشهور.

مع أن جميع ما أشرنا إليه ثابت ومدوّن، وبعضه منصوص عليه في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغۡنَىٰ ﴾ [الضحى: ٨]، فالله تعالى أغناه، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ [الأنفال: ١]، وقال تعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ... ﴾ [الحشر: ٧]، وورد أكثر من ذلك في كتب السنة الشريفة والسيرة النبوية، وفي كتب حياة الصحابة وتاريخ البعثة المحمدية.

١٠- لقد وقع الخلط الشديد بين الزهد المطلوب شرعاً بعدم التعلق بالدنيا، وعدم تقديس المال، وأن يكون المال في اليد، وليس في القلب، ودون أن يسيطر المال على الذهن والعقل،أو يُعدّ الأساس والمعيار والميزان في الحياة، أو يُقدم على ما سواه، فكل ذلك مذموم،بل المسلم يملك المال ويزهد فيه، فالفقير والمعدم لا يسمّى زاهداً؛ لأنه لا يملك المال أصلاً.

كما وقع الخلط السيء بين التواكل المذموم شرعاً وعقلاً؛ لأنه يعتمد على الكسل وترك العمل، وبين التوكل المطلوب شرعاً، وهو أداء العمل مع حسن الظن بالله تعالى، والاعتماد في النتائج عليه، وأنه هو الرازق، والمتصرف في الكون، والعالم لما في الغيب، وما هو الأصلح للعباد.

١١- إن رسول الله ﷺ هو القدوة للمؤمنين، والأسوة للمسلمين، وهو المثل الأعلى، ليس في العبادة فحسب، أو في الأخلاق، أوفي حسن المعاملة، أو في الجهاد والدعوة، بل هو أيضاً المثل الأعلى في جميع جوانب الحياة إلا ما ورد فيه دليل أنه خاص به، وهو قليل[1].

---

(١) ونقتصر هنا على القدوة ولأسوة والمثل الأعلى في الشؤون المالية، ونحيل ما عداها إلى مناسباتها الأخرى.

فالرسول ﷺ هو المثل الأعلى في العمل والكسب، فرعى الغنم كسائر الأنبياء، ثم مارس النشاط في التجارة التي اشتهر بها أهل مكة في الجاهلية، حتى بلغ القدح المعلى، وصار خبيراً بها، ولذلك اختارته خديجة رضي الله عنها في تجارتها لخبرته وسمعته، ثم تابع السعي والتجارة والعمل بعد زواجه.

والرسول ﷺ هو المثل الأعلى زوجاً، فتزوج -على فترات متعددة- أكثر من ثلاث عشرة امرأة، وقدّم المهر لكل منهن، وأقام حفل الزفاف، وتقديم الذبائح والولائم لكل منهن، وهو ما دعا إليه أصحابه أيضاً، وخصص لكل منهن بيتاً من أمواله، وكان يُؤمِّن لهن النفقة، ويدخر لكل منهن القوت لسنة كاملة في بيتها، ثم أوقف الأراضي والأموال الطائلة لهن، وخصص ريع صدقاته وأوقافه لزوجاته وأقاربه بعد وفاته، وخاصة أن زوجاته ممنوعات من الزواج بعده، فلا بدّ أن يتكفل بهن، ويؤمِّن لهن مورداً للمعيشة، وهو ما وفره رسول الله ﷺ في حياته وبعد مماته.

والرسول ﷺ هو المثل الأعلى في الأبوة، ورعاية أولاده، والنفقة عليهم، وتقديم العقيقة لكل منهم، وتأمين العطاء الكامل لهم، وكفالة الحاجات لكل منهم.

والرسول ﷺ هو المثل الأعلى في الأخوة والصداقة والمحبة والمودة، فكان أخاً كريماً، وصديقاً وفياً، ومحباً لغيره ومحبوباً، ودعا إلى التهادي بين الإخوة للتحابُب، ورغب بالثواب عليها، وقبل عليه الصلاة والسلام بعض الهدايا، وأثاب عليها بأفضل منها حتى لا يكون لغيره منّة عليه، ولا يكون ذلك ملمزاً ومطعناً في الدعوة بقبول الهدايا دون الثواب عليها، أو استغلال مال الغير لدعوته.

والرسول ﷺ هو المثل الأعلى في استقبال الضيوف وإكرامهم والقيام بواجبهم، ثم بتقديم العطايا المالية لهم، كما قدّم الهدايا لوفود الملوك والرسل، وأكرمهم، وخاصة إذا أحضروا معهم هدايا، فيرسل معهم ما هو أعظم ثمناً وقيمة.

والرسول ﷺ هو المثل الأعلى في رئاسة الدولة، وإدارة بيت مال المسلمين، واستلام موارد بيت المال، والتوجيه لتوزيعها على الجهات المستحقة بما يرضي الله تعالى، ويحقق مصالح المسلمين والدعوة.

والرسول ﷺ هو المثل الأعلى في حسن إدارة الدولة عامة، وتدبير اقتصادها خاصة، فكان يتفقد الأسواق التجارية في المدينة، ثم أرشد عليه الصلاة والسلام لإقامة السوق المناسب للدولة الناشئة، مع متابعة المكاييل والموازين، والتوجيه لأعمال التجارة، ووسائلها وأحكامها المشروعة، والتحذير من مضارها ومفاسدها ومحرماتها.

والرسول ﷺ هو المثل الأعلى في إدارة بيوته، وتنظيم شؤونها المالية، وتأمين القوت لها وما تحتاجه، والالتزام بعدم الإسراف من جهة، وعدم البخل والتقتير من جهة أخرى، وهو الذي أرشد إلى فضل الإنفاق على الأهل والعيال، وحسن الرعاية، وأن تركهم أغنياء خير من تركهم فقراء يتكفّفون الناس.

والرسول ﷺ هو المثل الأعلى في حبس الصدقات، وهو الوقف في سبيل الله تعالى، بحبس الأصل وتسبيل المنفعة، وأن يتم البدء بالإنفاق منها على الأهل والأقارب، فوقف عليه الصلاة والسلام معظم ثروته وأملاكه وأراضيه في سبيل الله، وكان ريعها ودخلها وثمرتها بعد وفاته لزوجاته التسع اللاتي

مات عنهن، وكان يحرم عليهن الزواج بعده، فأباح لهن الانتفاع بذلك، والباقي على آله وأقربه، ونظّار وقفه، ثم في سبيل الله وأبواب الخير، فكان عليه الصلاة والسلام أول الواقفين في الإسلام، كما أكده بعض العلماء[1].

١٢- إن الله تعالى اختص رسول الله ﷺ بمصادر مالية خاصة به، ومنها: الفيء، والأنفال، والصفي من الغنيمة، وسهمه من خمس الغنائم، وبلغت في حياته الشريفة أموالاً طائلة من الأراضي والإبل والغنم والخيل والسلاح، وكان ينفقها على نفسه، وأهل بيته، وعلى أصحابه، وفي سبيل الدعوة، وكان يقطع الأراضي لبعض الصحابة، ويتصدق بالوقف ببعضها، ولم يتوسع الفقهاء خاصة في بيان مصادر أموال النبي ﷺ وموارده وتركته لأنها انتهت بوفاته عليه الصلاة والسلام، ولكن لم تغفلها الكتب الموسعة في السنة الشريفة والسيرة النبوية، وشروح كتب الصحاح والسنن، وبيّن بعض العلماء الأموال التي كان رسول الله ﷺ يملكها في حياته من الدور والبيوت والخيل والبغال والسيوف، حتى

---

(١) روى ابن سعد بسنده قال: «أول صدقة في الإسلام وقف رسول الله ﷺ» الطبقات الكبرى ١٨٢/١، والثابت أن الخلاف بين أبي بكر رضي الله عنه وفاطمة الزهراء رضي الله عنها، ثم مع علي والعباس رضي الله عنهما لم يكن في ميراث النبي ﷺ وأصل الأراضي التي ذكروها، فالجميع معترف أن الأنبياء لا تُورث، وأن ما تركه هو صدقة (وقف في سبيل الله) بعد وفاته، ولكن الخلاف حقيقة حول إدارة صدقات رسول الله ﷺ (أوقافه) بعد وفاته، والنظارة عليها، فتولاها أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، ثم الحسن، ثم الحسين، وهكذا إلى بني العباس، وكانت معظم ثروته وتركته ﷺ وقفاً، وخاصة لزوجاته وأهل بيته وأقاربه، ثم للمسلمين، ولذلك عاش زوجاته بعد وفاته في كفاية وبحبوحة وكرامة.

صنف البغدادي رحمه الله تعالى كتاباً بعنوان «تركة النبي ﷺ»، وعدَّد بعض مفرداتها ومصيرها[1]، وبيّنها الطبراني أيضاً[2]، وابن ناصر الدمشقي[3]، وذكر بعضها ابن قيم الجوزية[4] رحمهم الله تعالى.

١٣- نعم، لقد مرّ رسول الله ﷺ، كسائر الناس، في حالات عصيبة ومختلفة طوال حياته، من ضيق وشدة، وخاصة في حصار الشعب بمكة، وبعد الهجرة، وفي فترات طارئة أخرى، وفي أوقات مخصوصة، ولكن كان في معظم الأحوال غنياً وميسوراً، وملك الأموال الطائلة، وخاصة في مكة، ثم بعد الغزوات والسرايا والفتوح، وعلى الأخص بعد غزوة بني النضير، وخيبر، وحنين.

١٤- تولّى رسول الله ﷺ وفاء الديون عن أصحابه إذا ماتوا معسرين، وقال عليه الصلاة والسلام: «من ترك مالاً فلورثته، ومن ترك كلاً فإلينا»[5]، وفي حديث آخر أن النبي ﷺ قال: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في

---

(١) تركة النبي ﷺ، لإسماعيل بن حماد البغدادي، وهو أقدم مخطوط (١٧٩هـ)، وتحدث عن تركة النبي ﷺ وأوقافه، وحققه الدكتور أكرم ضياء العمري، وكذا كتاب «إمتاع الأسماع بما للنبي ﷺ من أموال وحفدة ومتاع» للمقريزي (٨٤٥هـ) نشر دار الكتب العلمية، بيروت، وكتاب التراتيب النبوية، للأستاذ صلح محمد زكي اللهيبي، الفصل الخامس، النشاط التجاري ص١٨٧- ٢٣٤، نشر جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

(٢) المعجم الكبير، للطبراني ١١/١١١.

(٣) سلوة الكئيب بوفاة الحبيب، لابن ناصر الدمشقي ١/٣٠ وما بعدها.

(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية ١/١٣٠-١٣٥.

(٥) هذا الحديث رواه البخاري ٢/٨٤٥ رقم ٢٢٦٨، كتاب الاستقراض، باب الصلاة على من ترك ديناً.

الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ [الأحزاب: ٦]، فأيُّما مؤمن مات وترك مالاً فليرثه عصبته (قرابته الوارثون) من كانوا، ومن ترك ديناً أو ضَياعاً (عيالاً محتاجين يضيعون إن تُركوا) فليأتني، فأنا مولاه»[1]، أي أنا ولي المتوفى، أتولى أموره، فأوفي دينه، وأكفل عياله.

١٥- ومع أن الاتجاه العام للوعاظ والكتاب والباحثين يقتصر على جانب «فقر النبي ﷺ» فنحمد الله تعالى أن ذلك لم يؤثر على كيان الدولة الإسلامية وبيت المال وحياة المسلمين في تاريخهم إلا في جانب ضعيف في الفهم الخاطئ عن القضاء والقدر، وأن الله هو الرزّاق والمغني، مع شيء من الاستسلام والتواكل، أو القبول لواقع سيء عاشوه، فالتمسوا له التعليل والتسويغ بدعوى الاقتداء بفقر النبي ﷺ، والتأثر بالزهد المستورد من الشرق.

١٦- وهذا يؤكد أهمية قراءة السيرة النبوية كاملة، وضرورة دراستها بكل تفاصيلها، حتى لا يتورط العاقل بالحكم على جزء من الصورة، أو يتأثر بجانب من القصة، أو يعمّم واقعة خاصة، دون أن يعرف باقي الفصول والوقائع، وخاصة في الشؤون المالية في السيرة النبوية[2].

---

(١) هذا الحديث رواه البخاري ٨٤٥/٢ رقم ٢٢٦٩، كتاب الاستقراض، باب الصلاة على من ترك ديناً، ومسلم ٦٠/١١ رقم ١٦١٩، كتاب الفرائض، باب من ترك مالاً فلورثته.

(٢) من أفضل ما كتب في هذا الخصوص ما قدّمه طالبنا الأستاذ عبد الفتاح محمد السمّان في أطروحته للدكتوراه بعنوان «الاقتصاد النبوي، إنفاق النبي ﷺ وأوقافه أنموذجاً» فقد أحسن الاختيار، وأجاد العرض، فجزاه الله خيراً، ونفع به.